

لقاء فاسكودا غاما وأحمد بن ماجد مُستحيل وهم النهر والي - وتخرج فرّان وآراء بعيدة عن الصّواب

ابراهيم خوري

احمد بن ماجد التاريخ من بابه العريض بتأسيس ملاحه بحرية
جديدة خالصة من شوائب أخطاء الماضي ، وراسية على مبادئ
حديثه تدعمها المعارف الفلكية والجغرافية ، وتتنقيد بالاختبار
والتجريب والتكرار حتى اكتشاف القاعدة العلمية الصحيحة الثابتة .

ونال شهرة واسعة جداً . وأفاد منه في حياته نهارة جهاراً كل من أدرك
مستوى علمه الرفيع ، وسراً وخفاء كل من حسده وتحامل عليه من المعاملة
الجهلة أو الحاقدين .

ولم تقتصر شهرته على الأوساط العربية ، بل وصلت الى الهند والسند
والديلم والترك والزنج . ولا أدل على انتشار اسمه وعلمه من اتساع
تداول تصانيفه بين القاصي والداني من ربابين بحر الهند ، ومن انتحالها
وترجمتها الى لغة الأردو واللغة التركية ، لأن أهل البحر اقتنعوا أن سلامتهم
وسلامة مراكبهم تكمنان في معرفة علمه وتطبيقه .

هذا هو الرجل العظيم الذي عاش قبيل انتقال السيطرة على العالم من الشرق الى
الغرب على يد البرتغاليين ومن لحق بهم . وكان الأتراك العثمانيون في عداد الخاسرين
الكبار في هذا الحدث التاريخي الهائل الذي لا يزال العالم يعاني من مضاعفاته . وقد
ارتأى أحد أنصارهم ، وهو قطب الدين النهروالي ، أن يبرر فشلهم ، فآلّق بمسؤولية
الانتقال الخطيرة على كاهل الرجل العظيم ببساطة كلية وسذاجة . ومن هنا نشأت قضية
ارشاد البرتغاليين ، التي أثارت جدلاً حامياً طويلاً لا يحسمه الا تحليل الآراء المطروحة
من عهد النهروالي حتى أيامنا الحاضرة . وهذا ما نحن فاعلوه . ونبدأ بالنهر والي لأنه

أول من طرح الفكرة دون سائر المؤرخين والمفكرين ، في وثيقة كتبت في ظروف غامضة سوف نستجليها وبالأفاظ مبهمة التبس فهم مضمونها على بعض المستشرقين وبعض الباحثين العرب . وسوف نسلط الأضواء على ظروف كتابة وثيقة النهروالي ثم نحلل مضمونها ونفندھا .

أولا - وثيقة النهروالي

آ - ظروف كتابة وثيقة النهروالي :

فقطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (١) (لاهور الهند ٩١٧ هـ / ١٥١١ م مكة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م) هاجر الى مكة حدثاً ولما يبلغ الخامسة عشرة . واشتهر بثقافته الدينية العالية . وكان يتقن الفارسية والتركية والعربية . وفي أيامه استولت الدولة التركية العثمانية على الحجاز . وقد تقرب من الأتراك ونال حظوة كبيرة لديهم ، فأسندوا له منصبى الافتاء والقضاء في مكة ، وقرروا له مرتباً سنوياً يساوي مرتب شيخ الحرم المكي ، أي الشخص الثاني بعد شريف مكة . وكلفوه بالتدريس في مدرسة الأحناف السليمانية لقاء راتب ضخيم يعادل ستين ليرة ذهبية عثمانية في اليوم الواحد . وغمره بالعطاء سلاطين الأتراك وولاتهم وأمرأؤهم ، وكان يطوف بكل عظيم تركي يحج ، ولا يرتضي رجالات الأتراك مطوفاً غيره ولو كان من آل ظهيرة أو سواهم من البيوتات العريقة في مكة .

ولما استلم سنان باشا قيادة الجيش التركي الذاهب لفتح اليمن ، مر بمكة ، وقام النهروالي بخدمته . وبعد أن أتم سنان فتح اليمن رجع الى مكة حاجاً ، فلزمه النهروالي وقال عن علاقته به : « فعاد من أرض اليمن الى بلد الله الحرام ، ورزقه الله تعالى حجة الاسلام ، فلزمته في زمن الحج ، وقضيت معه مناسك العج والثج ، وغمرني بلطفه وكرمه ، وقلدني بأطواق بره ونعمه ، وشرف معاطفي بخلع التشريف ، وأتحفني بكل نادرة لطيفة وكل خبر لطيف ، وساق الي أخبار هذا الفتح العظيم ، وما منحه الله تعالى من الفضل العظيم ، والخير الجسيم ، وشرح ما لاقاه هو والعساكر المتصورة من التعب الشديد ، والألم الأليم ، وأمرني أن أرقم تلك الأخبار ، وأودع صدور الصحف عجائب تلك المآثر والآثار ... وأعطاني حضرة الوزير المشار اليه ، أعلى الله تعالى مرتبته لديه ، نسخة من تاريخ فتح اليمن ، منظومة باللسان التركي ، للمرحوم المبرور ، مصطفى بك الرموزي ، أمير اللواء السلطاني ، و« دفتر دار » ممالك اليمن ، تفمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، لأستضيء به في الاطلاع على بعض أحوال تلك البقاع ، وهو تاريخ في أعلى درجات اللطافة ، ليس له نظير في الكياسة والظرافة ، أناف على الحسن غاية الانافة ، غير أنه لما كان منظوماً لم يتمكن ناظمه من أداء المعنى بالتمام ، ولو بلغ حد الإعجاز في حسن أداء الكلام . على اني انتفعت به كثيراً في الأخبار ، وعولت عليه فيما ثبتت صحته عند نقلة الأخبار ، وجمعت في حقائق هذه الأوراق ، ثمرات تتنزه بها الخواطر والأحداق » (٢) .

ويتضح من هذا النص أن سنان باشا طلب من النهروالي أن ينقل إلى اللغة العربية تاريخ فتح اليمن استناداً إلى إرشاداته الشفهية وإلى ما نظمه مصطفى بك الرموزي ، رئيس كتّابه ، باللغة التركية ، وأن النهروالي تحقق من صحة أخباره من « نقلة الأخبار » أي المؤرخين الآخرين . ونفذ النهروالي رغبة أو أمر القائد التركي ، فكتب « الفتوحات العثمانية للاقطار اليمانية » سنة ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م ، وأهداه إلى السلطان سليم خان . ثم زاد عليه وسماه « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، وقدمه إلى السلطان مراد خان بن سليم ، وضمنه الأحداث الجارية بين عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م – ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ م .

وفي هذا الكتاب بالذات ورد النص المتعلق بأحمد بن ماجد على الوجه التالي :

« وقع في أول القرن العاشر ، من الحوادث الفواحش النوادر ، دخول « الفرتقال » اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين ، إلى ديار الهند . وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر ، ويلجئون الظلمات ، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ، بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر ، أي أبيض ، وهي مادة أصل بحر النيل ، ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل ، في مضيق ، أحد جانبيه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج ، لا تستقر به سفائنهم ، وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلاص منهم غراب إلى الهند . فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر ، يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له الملندي ، وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في كوة من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا . ثم أخذوا هرموز وتقووا هنالك ، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصبا » (٣) .

ويسترعي الانتباه لأول وهلة جعل النهروالي وصول « الفرتقال » إلى الهند في عام ١٤٩٥ م عوضاً عن ١٤٩٨ م / ٩٠٤ هـ : « وقع في أول القرن العاشر (يقصد الهجري) دخول الفرتقال اللعين . . . إلى ديار الهند » . وبذا يكون قد أخطأ وأوقع كل من نقل عنه في خطئه ، مثل المؤرخ جمال الدين أبي بكر الشبلي اليمني (١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م) الذي كرر غلطه حرفياً تقريباً في كلامه عن حوادث سنة ٩٠١ هـ : « وفيها ظهر الافرنج البرتغال – خذلهم الله تعالى – في الديار الهندية » (٤) . فالمؤرخ الذي لا يعرف متى جاء « الفرتقال » ، لا يمكن أن يعرف ما هو أدق ، أي من اتصل بهم ومن أرشدهم إلى الهند .

ولو عاصر النهروالي الأحداث البرتغالية في بحر الهند ، لقلنا أنه واسع الاطلاع ودقيق في أخباره . لكنه كتب النسخة الأولى من البرق اليماني بعد مرور ثلاثة وثمانين عاماً على قدوم فاسكو داغاما إلى بحر الهند . ويبدو أنه نقل بعض وقائع كتابه عن ابن

الديبع الذي يسميه « الفقيه الأجل الحافظ المحدث المؤرخ الشيخ وجيه الدين عبدالرحمن بن الديبع » . ويحيل الى مصنفه « الفضل المزيدي في تاريخ أهل زبيد » . وابن الديبع هذا (٥) عاصر الأحداث البرتغالية وتكلم عما جرى منها ابتداء من عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣ م ، أي بعد انقضاء خمسة أعوام على رحلة فاسكوداغاما الأولى . ولا يشير اليه ولا الى أحمد بن ماجد لا قبل هذا التاريخ ولا بعده . وعاصرها أيضاً بامخرمة (٦) المؤرخ اليمني الشهير ، لكنه لا يتحدث الا عما جرى منها بعد عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م ، أي بعد مرور تسعة أعوام على رحلة فاسكو داغاما الأولى ، ولا يشير اليه ولا الى أحمد بن ماجد لا قبل هذا التاريخ ولا بعده . بالتالي لم يشعر المؤرخان المعاصران للأحداث البرتغالية المعنية ، بوجود الفرنج في بحر الهند الا في وقت لاحق وبعد أن ذهبوا الى الهند ورجعوا منها ، ولم يتناولا وصول البرتغال الأول الى بحر الهند لا من قريب ولا من بعيد . أما النهروالي ، المؤرخ المتأخر ، فيجيء بهم الى بحر الهند قبل قدومهم الفعلي والحقيقي بثلاثة أعوام ، ويجزم أن أحمد بن ماجد تولى تسهيل مهمتهم وهو سكران - زائدة في الدقة - ولولاه لما عبروا الهند . اذن تكتنف ظلال شك كثيفة خبر النهروالي عن أحمد بن ماجد ، ولا يوثق بانفراد راويه بذكره دون سائر المؤرخين المعاصرين والمتأخرين ، رغم بعده في مكة عن مسرح الأحداث .

وتتعارض رواية النهروالي مع ثناء أمير البحر سيدي علي بن الحسين (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م) في كتابه المحيط . فهذا القائد التركي لا يطعن بتأتا بالمعلم العربي الفذ ، ولا يهتمه بارشاد الفرنج ، مع أنه سأل عنه وترجم محيطه عن تصانيفه وتصانيف المهري ، قبل تأليف النهروالي كتابه البرق اليماني بربع قرن (٩٦٢ هـ / ١٥٥٤ م) . فلو أن شيئاً مما ذكره المفتي حدث فعلاً لكان هذا المسؤول التركي أول المطلعين عليه ، ولما أغفله ولا سيما انه كان في منطقة الأحداث بعد نصف قرن من بدئها وكانت لا تزال مستمرة وغير محسومة . ولم يقل النهروالي نفسه انه نقل خبره عن مصطفى الرموزي أو سنان باشا ، بطلي الحملة التركية على اليمن . فلا بد من استبعاد مرور رواية النهروالي في ذهن الأتراك أو كونهم روجوها ، وبلغت مسامع مدونتها .

ويجهل النهروالي ، فيما يبدو ، مهارة البرتغاليين في البحر ، ويستخف بمستواهم الملاحي العالي . ولا تحتاج هذه النواحي الى عبقرية لادراكها . فقطعهم المحيط الأطلسي من لشبونة الى رأس الرجاء الصالح ، بصرف النظر عن معرفة المسافة الطويلة ، ووصولهم الى مشارف بحر الهند ، باعترافه صراحة في نصه ، كافيان لاثبات انهم ملاحون ماهرون ، وليبيان تناقضه مع نفسه . ثم ان ظهورهم في بحر الهند ، حتى دون أن يعرف المرء من أين جاؤوا ، ودون أن يملأوا ببحر القلزم أو بخليج بعد انزال سفنهم من البر في أحد المرافئ ، يعني أنهم سلكوا طريقاً جديدة ، لم يسلكها غيرهم فيما تروي التواريخ . وحتى لو لم يستعينوا بأحد ، كانوا سوف يبلغون الهند عاجلاً أو آجلاً ، ربما بصعوبة أو متأخرين بعض الوقت لأن البحر الذي يركبونه مجهول لديهم ، لكنهم

كانوا سوف يكتشفونه رويداً رويداً وشيئاً فشيئاً ، مثلما اكتشفوا بحر الظلمات تدريجياً وعلى مدى زمني طويل . ومن هنا ، لا يرى الباحث الموضوعي من مغزى لتحميل ابن ماجد مسؤولية ضخمة لا قبل له بها ، سوى ضيق أفق متهمه في الحكم على أحداث عالمية ضخمة بدأت تباشرها تظهر في مطلع القرن الخامس عشر مع قدوم الأساطيل الصينية الى بحر الهند : فالصراع قائم بين دول العالم ويستهدف السيطرة على التجارة العالمية فهو اقتصادي بحت - وقد احتدم بين الشرق والشرق ، ثم تحول الى صراع بين الغرب والغرب - البندقية والبرتغال - وذهب الشرق الضعيف المتفكك ضحيته في النهاية .

أخيراً ، يتجاهل النهر والي واقعا وتقليداً تفخر بهما العروبة والاسلام . فالعلم منفتح عند العرب والمسلمين ، لا خفاء فيه . ويطلبه كل من يرغب فيه ، ولا يمنع عن أحد . ويجب على العالم ، مهما كان فرع علمه ، دينياً أو دنيوياً ، ألا يحبسه عن طالبه ، بل أن يسعى الى نشره بين الناس . وما أكثر من تتلمذوا على العلماء في تاريخ العرب والاسلام . وما أكثر العلماء الذين كانوا يعطون كل علمهم الى تلامذتهم النجباء . فهل نذكر بالفقهاء والحفاظ والمتكلمين وبمجالس العلم عند الخلفاء ، وبتنافس الولاة على استقدام العلماء اليهم وكرامهم واغداق المنح عليهم وافساح المجال لهم لاجراء دراساتهم وكتابتها حتى أن بعضهم كان يوهب زنة مصنفة ذهباً ؟ ولا يخرج علم البحر على هذه التقاليد الموروثة الثابتة . فقد كان معاملة البحر يجتمعون في حلقات في البنادر يناقشون فيها مسائل علم البحر ويتبارون في حلها ويتباهون به . ألم يقل ابن ماجد شعراً في ذهبته (البيت ١٨٥) :

واني شهاب كالشهاب اذا غدت معاملة الحلقات نقفو مطالبني

ويعلق على ندوات المعاملة في كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، فيقول : وقد حضرت في شيء وعشرين حلقة زاخرة بالمعالم المحققين ، فلم أقم الا منصوراً (٦) . اذن كان المعاملة يتبادلون المعارف فيما بينهم في أيامه ، ولا يخفي أحد علمه عن أقرانه أو عن سائله . ويتم التبادل العلمي أحياناً من معلم الى آخر مباشرة عندما يلتقيان ، على حد قول ابن ماجد بالذات : « وحدثني الربان عثمان الجازاني ، الربان المشهور في ذلك البر ، وقال لي : ان فيها بعض عواري ، ولم أسمع من غيره ، ولا من والدي ولا من أهل البحر في أهل زمانني من الربايين ، أي ربايين الجبل واليمن » (٧) . هذا اضافة الى تصانيف المعلمين أو دفاترهم (رهمانجاتهم) التي كانت متداولة وفي متناول جميع الربايين وأهل البحر .

ويتوزع أولئك المعاملة القديرون على بنادر بحر الهند ، وينتظرون فيها مناسبة تقديم خدماتهم لمن يرغب فيها من أصحاب المراكب لقاء أجر يتفق عليه . وابن ماجد أحد هؤلاء المعاملة الذين كانوا يتنقلون بين البنادر ، ويقىمون فيها متحينين فرص العمل ، ويتقاضون مبلغاً من المال عن كل رحلة . ويخبرنا هو نفسه عن كثير من رحلاته . منها

رحلتان في عهد الملك الأشرف قايتباي (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م - ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م) .
فقد كان في كاليكوت في أحد الأيام ، وولج منها الى جدة بمركب صدق الدين الحلبي
المسمى بامحمودي . وفي يوم آخر ، كان في هرموز وولج منها الى جدة أيضاً بخمسة
مراكب شحن للشيخ عبدالرحمن بن الشيخ علي الحموي ، وأخذ منه مائتي أشرفي (ليرة
ذهبية) ، أو خمس مائة أشرفي في رواية أخرى . وأسف في وقت لاحق في أرجوزته
السبعية (الأبيات ٢٧٣ - ٢٧٥) التي نظمها عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م لتدني أجور
المعالة ، وإبان خطورته وانعكاساته على التجار وعلى مالكي السفن ، فقال :

أما الذي يسترخض النواخذة فليس له معلم بالقاعده
لا بد ما في سالفات الدهر يرون عاماً في جميع العمر
تمناهم الصرفة في الترحال تتلف أرواحاً على أموال

ويتحدث ابن ماجد عن وفرة المعالة في بنادر بحر الهند مثل بندر هرموز ، ويقول:
« بل ان هرموز أو جرون أكثرهم عمارة وأكثرهم - أي الجزر الكبار - معالة ، لأنها
فرضة العراقيين (يقصد البصرة والكوفة أو عراق العرب وعراق العجم أو خوزستان) (٨)
ويثني في البليغة في قياس سهيل والرامح (الأبيات ٤٩ - ٥٢) على شجاعة معالة جلفار
واتقانهم تنفيذ المهام التي توكل اليهم . ولا يفرق بين معلم عربي ومعلم غير عربي في
الملاحه الشاطئية . فهو يجزم مثلاً انه ينفرد بخبرته الدقيقة والواسعة ببحر قلزم العرب
ويقول : « ان جدي . . . كان نادرة في ذلك البحر (يريد بحر القلزم) ، واستفاد منه
والدي . . . وقد أخذت علم الرجلين مع كثرة التجربة ، فحررت ذلك البحر القلزمي . .
وقد ذكرت اسمي في هذا البيت (بيت شعر) لانفرادي بمعرفة هذا البحر » (٩) . لكنه
يعترف ان كل معلم ينفرد أيضاً بخبرته الدقيقة الواسعة ببحر بلده ، فيقول : « واعلم
أيها الطالب ان كل أحد صانع - أي ماهر - في بره خابر به : أهل الصين في الصين ،
وأهل سفالة في سفالة : وأهل الهند في الهند ، وأهل الحجاز في الحجاز ، وأهل الشام في
الشام » (١٠) ، وان كان يصر على تفوقه وبالتالي تفوق المعالة العرب بالاهتداء
بالنجوم أي الجري في الباحة وقطع بحر الهند من أحد سواحل الى الساحل الآخر دون محاذاة
البر . وهذا يعني بصريح العبارة أن معالة سائر الأمم ماهرة هي أيضاً وتنتقل كما تفعل
المعالة العرب ، وتعرض لتقديم خدماتها في شتى البنادر لقاء أداء ثمن خبرتها ، تماماً
مثلاً يفعل خبراء الدول المتقدمة تقنياً في أيامنا الحاضرة .

اذن كان عشرات المعالة ، ربما مئات منهم ، من عرب وغير عرب ، ينتشرون في
جميع بنادر بحر الهند الهامة على سواحل افريقية الشرقية وجزيرة العرب وفارس
والسند والهند ، يترقبون تكليفهم باجراء السفن الى حيثما يشاء أصحابها ، على أن
يؤدى لهم أجر يتفق عليه الطرفان . هكذا كان الوضع في بحر الهند عند وصول
« الفرقتال » اليه . فهل كانت فرصة العمل على إحدى السفن البرتغالية ، مشؤومة

كانت أم سعيدة ، من نصيب أحمد بن ماجد أم من نصيب معلم آخر من جنسية أخرى ؟
ان اعادة قراءة رواية النهروالي وتحليل مضمون نص وثيقته يلقيان عليها أضواء
جديدة تكشف ظلال الشك الكثيفة التي دارت في خلدنا حتى الآن ، وتجعلها أقرب الى
الخيال منها الى الواقع .

ب - تحليل مضمون وثيقة النهروالي :

فوثيقة النهروالي مسبوكة بأسلوب قصصي ضبابي ، أضع معالمها التاريخية
والجغرافية ، فضاعت معها معانيه واستبهمت على قارئها ، أو ربما أدت الى عكس ما قصد
تماماً لأن كاتبها يهرف بما لا يعرف . لكن متى وجد النص بطل الاجتهاد .

١ - مضمون وثيقة النهروالي :

وفحواها تتلخص فيما يلي :

- دخل « الفرتقال » الى ديار الهند في أول القرن العاشر الهجري أي عام ١٤٩٥م .
وقد أبنا خطل هذا القول من قبل .

- وسلكوا طريق زقاق سبته ، فبحر الظلمات ، فموضع قريب من جبال القمر
الى أن وصلوا الى « المشرق » . ولن نعلق على جبال القمر . لكننا لا ندري أي مشرق
يقصد ، ولا هو يعلم ما يريد بهذا الاتهام . الا اننا نتصور معه أن البرتغاليين أصبحوا
في الجهة الشرقية في طرف بحر الظلمات ، حسب مفهوم الجغرافيين العرب والبحارة ،
من تنمة النص التي تتعلق وحدها بمشكلة ارشاد الفرنج .

- ومروا في « موضع » قريب من الساحل ، في « مضيق » أحد جانبيه جبل والجانب
الثاني بحر الظلمات ، كثير الأمواج ، كسر سفنهم ، وأهلكهم مدة طويلة ، وعجزوا عن
الوصول الى بحر الهند . ولا ندخل في التفاصيل ، بل نكتفي بأخذ العلم ان
« الفرتقال » توقفوا عند « المضيق » الذي يفصل بحر الظلمات عن بحر الهند .

- واستطاع غراب واحد من أغربتهم أن يصل الى بحر الهند . وثبتت هذه الجملة
تناقض النهروالي مع نفسه ، وان بوسع الفرتقال أن يدخلوا بحر الهند بلا دلالة .

- وتلطفوا للناس ليعرفوا بحر الهند ، فقال أحمد بن ماجد في حالة سكر للملندي :
ابتعدوا عن الساحل ، وتوغلوا في الباحة ثم عودوا ، ففعلوا وسلموا . وهذا كلام
جاهل ساذج لا علم ولا مهارة فيه لنقول انه أنجاهم . ويخطر لكل انسان ، لاسيما الملاحين
مقتدرين قطعوا المحيط الأطلسي من الشمال الى الجنوب ، أن يفكروا بتحاشي العقبة التي
تعترضهم والالتفاف حولها .

- يجمل آخر النص ما فعله الفرتقال بعد أن كثروا في بحر الهند . ولا صلة لهذه
الأقوال بموضوع الارشاد ، فلا نتبسط بها الآن .

٢ - ما تضمنته الوثيقة وما لم تتضمنه:

في جميع الأحوال ، يهمننا ما لم تتضمنه الوثيقة بقدر ما يهمننا محتواها فيما يختص بارشاد البرتغاليين .

- فهي لا تشير البتة الى أي رحلة من أي مكان من ساحل افريقية الشرقية الى ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي ، أي الى عبور بحر الهند من بندر افريقي الى بندر هندي .
- ولا تذكر أن أحمد بن ماجد عمل رباناً أو معلماً على سفينة قيادة فاسكوداغاما ولا على غيرها من السفن البرتغالية .
لكنها نصت صراحة :

- على أن مشكلة البرتغاليين انحصرت في عجزهم عن الانتقال من بحر الظلمات الى بحر الهند ، عبر مضيق خطر .

- وانهم نجحوا في العبور من بحر الظلمات الى بحر الهند بعد تطبيق كبير الفرنج المسمى « الملندي » نصيحة أحمد بن ماجد .

هذا ما ورد في وثيقة النهروالي . فما قيمته ؟

ج - تقويم وثيقة النهروالي :

لا بد من اعطاء بعض الشروح التمهيدية، قبل الحكم النهائي على وثيقة النهروالي .

١ - شروح تمهيدية :

من هو الملندي ؟ وأين يقع المضيق المنوه به ؟ وما قيمة الرأي الذي ينسب به النهروالي لأحمد بن ماجد ؟ لا يجيب لا المفتي ولا المصادر العربية عن هذه الأسئلة . وليس أمامنا الا العودة الى المراجع البرتغالية والأجنبية الأخرى ان لزم الأمر ، والى الاستنتاجات المنطقية .

أما لفظ « الملندي » فقد شرحه بدروتكسيرا بوضوح تام ، لا لبس فيه ، وقال عنه انه الاسم الذي يطلقه مسلمو هرموز على الفونسو دي البوكيركي الكبير (١١) لأنه جاء اليهم عندما احتل جزيرتهم عام ١٥٠٧م / ٩١٣ هـ ، من جهة بندر ملندي (١٢) .
اذن اذا تقيدنا بحرفية نص النهروالي ، ولا يجوز لنا أن نحيد عنها ، تبين لنا أن « كبير الفرنج ، وكان يقال له الملندي » الذي عاشر أحمد بن ماجد في السكر ، هو الفونسو دي البوكيركي ولم يرد هذا اللفظ على لسان أحد أو في مخطوطة عربية قبل عام ١٥٠٧ م وان تسمية الملندي مستحدثة، ولم تظهر الا بعد مرور تسعة أعوام على رحلة فاسكودا غاما الأولى .

فماذا عن « مضيق » النهروالي ؟ نستبعد أن يقصد به قناة موزمبيق الحالية، الواقعة بين موزمبيق (برسفالة أو برمنسيبيجي) وبين جزيرة مدغسكر (القمر) .

أولاً - لأنها لا تتفق مع وصف النهر والي .

ثانياً - لأن عرضها البالغ ألف كم ونيفاً في شمال جزيرة مدغسكر وجنوبها ، وخمس مائة كم في وسطها ، جعلها جزءاً من بحر الزنج في عرف البحارة والجغرافيين (١٣) وهذه أبعاد تعتبر هائلة في عهد السفن الشراعية ، مهما كانت المراكب ضخمة .

ثالثاً - لأن بين جزيرة القمر وبر سفالة وجزره ، جزائر وشعبان ومع ذلك لا تمنع المسافر أن يجوز بينها ، على حد قول أحمد بن ماجد (١٤) .

رابعاً - لأن تسمية المضيق قناة موزمبيق حديثة . ونميل الى الاعتقاد بأن النهر والي تخيل ، لمقتضى الحال ولاخراج فكرته ، وجود مضيق صغير في مكان ما ، لم يعينه ولا يستطيع أن يحدده أصلاً ، قرب ساحل أفريقية الى جنوب جزيرة القمر وفي « بحر الظلمات » ، على حد قوله ، أي على طرف البحر المحيط (١٥) . ويذكر أحمد بن ماجد الظلمات والبحر المحيط الى جنوب جزيرة القمر حيث يقول : وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام . وعلى جنوبها بحر أوقيانوس بلفظ اليونان ، وهو البحر المحيط بالدنيا بلفظ العرب . وهو مبدأ الظلمات الجنوبية على جنوبي هذه الجزيرة « (١٦) » . مهما يكن من أمر ، فالناحية الأساسية توضح ، وهي أن مضيقاً ما ، حقيقياً أو خيالياً (ونحن نعلم علم اليقين انه خيالي) ، يقع على تخوم البحر المحيط وبحر الهند ، الى جنوبي جزيرة القمر . على حد زعم النهر والي ، منع البرتغاليين من الاستمرار في تقدمهم نحو بحر الهند الى أن حلت مشكلتهم على يد أحمد بن ماجد . فما هو حل هذا الرجل العبقري ؟

يقول النهر والي ان شخصاً ماهراً من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد ، قال لهم في حال سكره : « لا تقربوا الساحل من ذلك المكان (يقصد ساحل المضيق) وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . هذا ما جادت به عبقرية منظر علم الملاحة في المحيط الهندي وبحاره ، على حد زعم النهر والي ، وخلاصته : ابتعدوا عن المضيق الخطر ودوروا حوله ، ففعلوا . فماذا يعني هذا الكلام ان لم يكن ازدرأ أحمد بن ماجد مرتين ، واحتقار الفرتقال مرة واحدة ، والاستخفاف بالقراء على مدى الدهر ؟ فابن ماجد ، صاحب الدين والعبقرية ، يتهم بالسكركليوبوس بسر علمي ملاحي يتوقف عليه مصير العالم . وما هو هذا السر الخطير ؟ انه توصية بتجنب المضيق الخطر . والفرتقال الذين قطعوا بحر الظلمات من الاندلس الى مشارف جزيرة القمر (كان بحر الظلمات يمتد حتى حدودها) ، وتحاشوا جميع الأخطار التي اعترضت سبيلهم ، يتركون سفنهم تفرق الواحدة تلو الأخرى في المكان ذاته ، ولا يخطر ببالهم أن يحيدوا عن المضيق الخطر ، الا عندما نصحبهم ابن ماجد بتجنبه . أما القراء ، فمطلوب منهم أن يكونوا أغبياء ، وأن يصدقوا هذه الترهات . لكن لا علينا . ما هو الموقف السليم من وثيقة النهر والي ؟ أو ما هي قيمتها الحقيقية ؟

٢ - قيمة وثيقة النهروالي :

لا نعتقد بوجود صعوبة لتقويم وثيقة النهروالي بعد الشرح المفصل الذي قدمناه لايضاح جميع جوانبها . فقد ثبت لدينا على وجه التحديد :

- انها ذكرت ان البرتغاليين جاؤا الى بحر الهند عام ١٤٩٥ م / ٩٠١ هـ في حين وصل فاسكودا غاما الى منسبيجي في منتصف شهر نيسان عام ١٤٩٨ م / ٩٠٤ هـ والى ملندي في آخر نيسان من العام ذاته .

- وان سفنهم ظلت تفرق في مضيق خطر يقع جنوبي جزيرة القمر ، ولم يخلص منها الا غراب واحد الى الهند . اذن استطاع البرتغاليون أن يبلغوا الهند بوسائلهم الخاصة ، بلا دلالة وبدون مساعدة أحد . وهذا يتنافى مع ابراز حاجتهم الى الدلالة في الوثيقة ذاتها واعادة الفضل الى ابن ماجد بولوجهم الى بحر الهند .

- وان كبير الفرنج أي الملندي أو البوكيركي ، أسكر أحمد بن ماجد ليحصل منه على نصيحة بتجنب المضيق الخطر ، لاتحديد طريق الهند له . وقد ارتكب النهروالي خطأ فادحاً جديداً . فأحمد بن ماجد لم يذهب أبداً الى سفالة ولا الى جنوب سفالة ، فلا يمكن أن يلتقي بشخص في مكان لم يزره البتة . ولم يتجه البوكيركي الى بحر الهند الا عام ١٥٠٣ م / ٩٠٩ هـ ، واستكشف جزيرة القمر قبل أن يكمل طريقه عام ١٥٠٥ م / ٩١١ هـ ، أي بعد مضي ١٦ عاماً على توقف أحمد بن ماجد عن العمل في البحر ، وبعد وفاته في جميع الأحوال . ولا يمكن الادعاء بأن المقصود « بالملندي » « الميرنتي » أي فاسكو داغاما ، أولاً ، لأن اصطلاح « الملندي » (نسبة الى بندر ملندي) غير اصطلاح « الميرنتي » أي أمير البحر ، وثانياً ، لأن فاسكو داغاما لم يحصل على لقب « أمير بحار الشرق » الا بعد رجوعه من رحلته الأولى الى لشبونة في آخر عام ١٤٩٩ م / ٩٠٥ هـ ، ولم يعد الى بحر الهند حاملاً هذا اللقب الا في رحلته الثانية (١٥٠٢ م / ١٥٠٣ هـ) . وهكذا ، لو قبلنا جدلاً فقط ، أن الملندي والميرنتي مترادفان ، فان أحمد بن ماجد كان قد طواه النسيان والثرى منذ مدة طويلة لاعتكافه في بيته منذ أمد بعيد ووفاته . ولقاؤه بفاسكو داغاما مستحيل الوقوع مثل لقائه بالبوكيركي .

- وانها لم تتطرق مطلقاً الى عبور بحر الهند من ساحل افريقية الشرقية الى ساحل الهند بدلالة ابن ماجد ووجوده على ظهر احدى السفن البرتغالية .

فماذا بقي من وثيقة النهروالي بعد هذا التحليل الذي أبان أن قضية ارشاد ابن ماجد للبرتغاليين لم ترد في النص ولم تحصل في الواقع ؟ لا شيء على الاطلاق . ورب سائل يسأل ماذا دعا النهروالي لاقحام اسم ابن ماجد في الصراع على الهيمنة على التجارة العالمية ، وكيف عرف اسمه ؟ الجواب بسيط . فمن جهة أولى ، أراد المؤرخ العظيم أن يبرر فشل الشرق في ايقاف زحف الغرب على خيرات وتجارته ، فحمل عالماً جليلاً ومسؤولية ناعت بحملها دول الشرق ، وهذا ضعف حكم وقصر نظر . من ناحية ثانية ، لدى المفتي الكبير وسائل كثيرة لمعرفة أحمد بن ماجد الذي كان منزله قائماً في مكة

نفسها وبه زوجه منذ ثلاثة أرباع القرن ، ولا بد أن شهرته بقيت عالقة في الأذهان .
ولو فرضنا أن أهالي مكة نسوا أحمد بن ماجد ومنزله وزوجه وشهرته ، فمكتبة النهروالي
الشخصية في مكة كانت تحوي ١٥٠٠ مجلد من الكتب النفيسة ، فلماذا لا تكون نفائس
ابن ماجد في عدادها ؟ وإذا استبعدنا هذا الاحتمال وذاك ، فإن رحلات النهروالي
العديدة ولا سيما رحلته الى اسطنبول في عامي ٩٦٤ و ٩٦٥ هـ كفيلة بأن تسمعه
أخبار هذا المعلم ، علماً أن النهروالي قابل في عاصمة السلطنة العثمانية مشاهير العلماء
الأتراك . فهل يستغرب أن يكون التقى بسيدي علي بن الحسين الذي ترجم الى اللغة
التركية تصانيف ابن ماجد وسليمان المهري وكان انذاك في اسطنبول ايها ؟ في جميع
الأحوال تعتبر هاتان الناحيتان ثانويتين بالمقارنة بقضية ارشاد البرتغاليين التي ظن
بعض المستشرقين ومنهم غبريل فران انها حصلت على يد أحمد بن ماجد ، استناداً الى
وثيقة النهروالي . فكيف توصل فران الى هذا الرأي ؟ هذا ما سوف نتحدث عنه الآن .

ثانياً - تأييد غبريل فران لوثيقة النهروالي

فغبريل فران مستشرق فرنسي عظيم اشتهر بنشر تصانيف أحمد بن ماجد وسليمان
المهري ، مصورة ، بلا تحقيق ولا تعليق ، عن مخطوطتين (رقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩) من
التراث العربي المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس . وقد وضع منهجاً طموحاً لدراسة
النصوص الملاحية العربية وترجمتها الى اللغة الفرنسية ، لكنه لقي وجه ربه قبل أن ينجز
عمله ، وترك فراغاً كبيراً بعد أن نشر مقالات كثيرة جداً عن بعض النواحي الخاصة من
الملاحاة العربية ، لن نشير الآن الا الى ما يتعلق منها باقتناعه أن أحمد بن ماجد قاد فاسكوداغاما
الى الهند . وهي :

- ١ - « الربان العربي لفاسكوداغاما والارشادات الملاحية العربية في القرن الخامس
عشر . نشر في مجلة « حوليات الجغرافية » ، السنة ٣١ ، رقم ١٧٢ تاريخ ١٥
تموز عام ١٩٢٢ ، ص ٢٨٩-٣٠٧ .
- ٢ - « تحديد هوية الربان فاسكوداغاما العربي » . نشر في المجلة الآسيوية ، عام
١٩١٩ ، ص ٣٥٤ .
- ٣ - « العنصر الفارسي في النصوص الملاحية العربية » . نشر في المجلة الآسيوية ، عام
١٩٢٤ ، ص ١٩٣ .
- ٤ - « مدخل الى الفلك الملاحي العربي » ، باريس ، ١٩٢٨ . جمع في هذا المجلد
(ص ١٨٣ وما يليها) كل ما يخص ربان فاسكو داغاما العربي .
- ٥ - « ربان بحر الهند والصين واندونيسية » شهاب الدين أحمد ، المسمى « أسد
البحر » ، باريس ١٩٢١ .
- ٦ - الملاحات القديمة في بحر الهند » ، المجلة الآسيوية ، عام ١٩١٨ ، ص ١٤٨ .

ويستدل من كثرة هذه الكتابة في موضوع فاسكو داغاما وأحمد بن ماجد ، ومن مضمون هذه المقالات ، أن غبريل فران حل وثيقة النهروالي ، وأدرك ما تنطوي عليه من تناقضات مفضوحة ، لكنه لم يستخلص منها أنه يستحيل التسليم بما ورد فيها وإنها تنفي نفسها بنفسها ، بل اعتبرها قبلية صحيحة ، وأخذ يعمل نحتاً في نصها ليستخرج منه ما ليس فيه ، مما اضطره إلى أداء المتن العربي بترجمة فرنسية أدخلت فيها إضافات لا تمت بصلة إلى الأصل ، وترمي ، بحسن نية ، إلى جعل الرواية مقبولة لديه ولدى القراء . وكان له ما أراد من تكييف الترجمة ، لأن أحداً لم يحاول مراجعة نقله والتدقيق فيه ، ولأن نفوذه المعنوي كان يدفع الباحثين إلى الاحتجاج بأقواله لا إلى تقويمها والنظر في أساسها . فانتشرت أفكاره في الأوساط العلمية الأوروبية والعربية . وسوف نبسط تأييده لوثيقة النهروالي بكلامه بالذات ، ونذكر البرت كاميرير مثالا على الذين انضموا إلى وجهة نظره بحماس بالغ .

آ - حماس غبريل فران لوثيقة النهروالي :

فقد أخذ غبريل فران بوثيقة النهروالي ، وعاد إلى المراجع البرتغالية المعاصرة أو القريبة من عهد ابن ماجد على أنه يجد فيها دعماً لمزاعم قطب الدين ، لكنه فشل واضطر إلى الاعتراف بأن المفتي وحده يقول بهذا القول ، ولا إثبات لصحة خبره . ولنقرأ ما كتبه فران :

١ - أقوال غبريل فران وحواشيه حرفياً :

« جاوز فاسكو داغاما رأس الرجاء الصالح ، ثم وصل إلى ملندي على ساحل إفريقية الشرقية ، واستطاع أن يحصل فيها على معلم قاده مباشرة إلى كاليكوت . وقد ورد هذا الخبر بايجاز في يوميات رحلة (١) فاسكو داغاما الأولى ، التي كتبها أحد بحارتها ، وبتفاصيل مستفيضة عند المؤرخين الأول للاكتشافات البرتغالية ، خاصة باروس (٢) ، وكستنهيدا (٣) ، ودامياو دي غويس (٤) ، الذين أعطوا المعلم اسماً واحداً ، هو « كاناكوا » حسب كستنهيدا ودامياو دي غويس ، و « كانا » حسب باروس (٥) . »

وأيد كتاب عربي هذه الرواية . ونشر منذ أكثر من قرن . نعني به « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، الذي ذكر اسم المعلم أحمد بن ماجد ، وألفه قطب الدين النهروالي (١٥١١ - ١٥٨٢) ، وتناول فتح العثمانيين لليمن . وقد توسع سلفستر دي ساسي في دراسته ، في المجلد الرابع من « المذكرات والمختارات » (١٧٩٤ ، ص ٤١٢ وما يليها) ، واعتمد على المخطوطات رقم ١٦٤٤ و ١٦٥٠ من التراث العربي المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس . وأضيف إلى هاتين المخطوطتين بعد نشر دي ساسي بحثه ، المخطوطة ٥٩٢٧ من التراث العربي ، وكانت في مجموعة شيفر (٦) . ونشر م . ديفيد لوبيس في عام ١٨٩٢ مقتطفات من البرق اليماني في الفتح العثماني ، مأخوذة من مخطوطة امتلكها كوسين

دي برسيفال ، وكانت لزميلنا الراحل المعقيدف م . ايستيفيس بيريرا، بعنوان : مقتطفات من تاريخ فتح العثمانيين لليمن (لشبونة ، ١٨٩٢ ، قطع ثمن) .

أما النص التالي ، فقد أخذ من المخطوطة ١٦٤٤ ، وحقق . وسوف نشير في الحواشي الى التباينات النادرة المفيدة ، الواردة في المخطوطات الأخرى ، بما فيها مخطوطة لشبونة . ويبدأ هذا المقطع في ظهر الورقة ٦ من المخطوطة ١٦٥٠ ، وفي وجه الورقة ٨ من المخطوطة ٥٩٢٧ . وقد ترجمه من قبل دي ساسي و م . د . لوبيس ، لكنني رأيت أن أعيد ترجمته بنفسه زيادة في الفائدة وحرصاً على التدقيق في أداء المعاني أكثر مما فعلاً .

٢ - ترجمة فران وثيقة النهروالي وزيادته عليها :

وثيقة النهروالي

اعادة ترجمة فران الفرنسية الى العربية

الباب الثاني (من الفصل الثاني)
السلطة تنتقل في اليمن من دولة بني طاهر الى الأمير الجركسي حسين .

وقع في أول القرن العاشر الهجري (١٤٩٥ - ١٥٩١) من الحوادث الفوادم النوادر وصول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين الى الهند (الغربية)

وكانت عصابة منهم قد ركبت البحر في مضيق سبته (٧) وولجت (في بحر) الظلمات (٩) ، ومرت خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أي « الجبل الأبيض » ، وهي مادة أصل بحر النيل (١١) وذهبوا الى المشرق ، ومروا بموضع (١٣) قريب من الساحل ، حيث (البحر) ضيق (١٤) ، أحد جوانب (هذا المكان في الشمال) جبل ، ومن الجانب الثاني (الى الجنوب) بحر الظلمات . المضطرب (١٥) . هنا لم تستطع سفنهم أن ترسو وانكسرت . ولم ينج (١٦) منهم أحد .

النص العربي الذي ترجمه فران

المخطوطة ١٦٥٠ ، وجه ورقة ٥ ،
س ٩ الفصل الثاني في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر الى الأمير حسين من الجراكسة .

وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادم النوادر دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند .

وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر ويجلون (٨) في الظلمات ، ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أي أبيض ، وهي مادة (١٠) أصل بحر النيل . ويصلون الى المشرق (١٢) ، ويمرون بموقع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات .

في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا يسلم منهم أحد .

النص العربي الذي ترجمه فران

واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طايفتهم أحد الى بحر الهند ، الى أن خلص منهم غراب الى الهند . فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد .

صاحبه كبير الفرنج (١٨) وكان يقول له الاملندي (١٩) وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره .

وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا (٢١) في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج .

فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا في بحر الهند .

وبنوا في كوة (٢٣) بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء ، اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن ، قلعة يسمونها كوتا (٢٥) .

ثم أخذوا هرموز ، وتقووا هناك (٢٦) وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال (٢٨) ، فصاروا يقطعون (٢٩) الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصبا الى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين .

اعادة ترجمة فران الفرنسية الى العربية

وهكذا استمر البرتقال مدة (يرسلون سفناً ويهلكون في ذلك المكان (١٧) . ولا يخلص من عصابتهم أحد الى بحر الهند (الغربية) ، الى أن خلص منهم غراب الى الهند (الغربية) (فقبل أن يصلوا الى الساحل الغربي للهند وعندما كانوا على ساحل افريقية الشرقية) ، ثابروا على سعيهم للحصول على معلومات عن هذا البحر (بحر الهند الغربية) الى أن عمل رباناً عندهم بحار ماهر يسمى أحمد بن ماجد .

اتصل به كبير الفرنج ويقال له «الملندي» (٢٠) وسكر مع أمير البحر البرتغالي . فعلم هذا البحار الطريق لأمر البحر .

وقال للبرتغال : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان (٢٢) ، وتوغلوا في البحر ثم اقتربوا من ساحل (الهند) فلا تنالكم الأمواج .

فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند (الغربية) .

وفي كوة (بضم الكاف وتشديد الواو بعدها هاء) اسم لموضع من الدكن ، هو تحت الفرنج حالياً بنوا قلعة يسمونها كوتا (٢٤) .

ثم أخذوا هرموز (٢٧) ، وتقووا هناك . وصارت الامداد تترادف عليهم من البرتقال ، وصاروا يلاحقون المسلمين ويأسرونهم ويحصلون على الغنائم منهم . واستولوا بالقوة على كل سفينة ، حتى تسببوا بالحاق أضرار فادحة بالمسلمين وبالمسافرين عامة .

إعادة ترجمة فران الفرنسية الى العربية

عندئذ ، أرسل مظفر شاه بن محمود
شاه بن محمد شاه ، سلطان كجرات يومئذ ،
سفارة الى السلطان أشرف قانصوه الغوري
يطلب منه النجدة ضد الفرنج .

النص العربي الذي ترجمه فران

فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود
شاه (٣٠) سلطان كجرات يومئذ (٣١)
الى السلطان الأشرف قانصوه الغوري
يستعديه على الافرنج .

٣ - تعليقات فران على وثيقة النهروالي :

ألف قطب الدين كتابه بعدما يقرب من خمسين عاماً على وصول البرتغاليين الى بحر الهند ، وكان يقيم في مكة . فيحتمل أن يكون قد اطلع بالتفصيل على الظروف التي مكنت فاسكو داغاما من العبور من ملندي الى كاليكوت . الا أن الرواية القائلة بأن « اميرال بحار الشرق » حصل على معلومات من أحمد بن ماجد بعد أن دعاه الى الطعام وأسكره ، تبدو غير موثوقة . فالمسلمون ، فيما هو معلوم ، لا يقبلون دعوة الى الطعام عند أحد النصارى الا اذا كانت معرفتهم به وطيدة ، وتأكدوا أن أطعمته وأشربته لا تحتوي شيئاً تحظره شرائعهم وعاداتهم الدينية . اذن لدى المرء ما يدفعه لأن يستغرب قبول المعلم العربي دعوة الأميرال البرتغالي ، وفي رأيي أن خبر السكر مختلق بحذافيره ، وأكذوبة ، فيما يبدو ، غايتها تبرير عمل يعتبره مسلمو مكة حتماً خيانة عظيمة . ويرجح على النقيض ، أن يوافق المعلم العربي على اجراء مركب الأميرال (= مركب القيادة) في الأسطول البرتغالي على أساس وعد بمكافأة مالية سخية لقاء خدماته . أما أخبار الرحلات البرتغالية ، فلا داعي لديها لاختفاء الحقيقة ، وتختلف روايتها عن رواية النص العربي (٣٢).

١ - ففرناو لوبيز دي كستنهيديا يروي في كتابه :

Historia do descobrimento e conquista da India pelos Portuguezes :

أن فاسكو داغاما وصل الى ملندي في ١٥ آذار عام ١٤٩٨ . وزاره أحد خالصاء الملك ، فاحتجزه الأميرال على ظهر مركبه . «وعندما علم ملك (ملندي) بسبب احتجازه ، أرسل فوراً الى فاسكو داغاما معلماً من جوزرات اسمه كاناكا (كذا) ، واعتذر لأنه لم يبيع به (في وقت مبكر) . وبهذا ، بقي الملك والأميرال على صلات طيبة . ولما أعد فاسكو داغاما جميع ما يلزم سفره ، انطلق من ملندي الى كاليكوت يوم الثلاثاء ٢٤ نيسان» ، أي بعد يومين من حصوله على معلم من ملك ملندي (٣٣) .

٢ - ويذكر غسبار كوريبا في كتابه Landas da India أن فاسكو داغاما سافر من ملندي الى الهند « في أعمار الهلال في شهر تموز عام ١٤٩٨ (٣٤) » ، ومعه ثلاثة معاملة ، أخذ واحداً منهم من منسبيجي ، وأعطاه الاثنين الآخرين ملك البلاد (٣٥) .

٣ - ويأتي جاوو دي باروس برواية أخرى في كتابه Da Asia . فقد زار بابانيون من مملكة كمبايا في جوزرات ، فاسكو داغاما على ظهر مركب القيادة أثناء اقامته في

ملندي . وكان هؤلاء الهنود قد كرموا صورة العذراء مريم (٣٦) ، فظن انهم ينتمون الى أحد المجتمعات المسيحية الموجودة في الهند منذ أيام القديس توما . وجاء معهم مسلم من جوزرات يدعى معلم كانا . وابتهج هذا المعلم بالحديث مع البحارة البرتغاليين ، وأراد ارضاء ملك (ملندي) ، الذي كان يفتش عن معلم لهم ، فقبل أن يذهب (ويدلهم على طريق الهند) . وتحدث اليه فاسكودا غاما ، واطمأن الى معارفه ، لا سيما وان المعلم المسلم أراه خريطة لساحل الهند (٣٧) بأجمعه ، مرسومة مثل خرائط المسلمين ، وعليها خطوط طول وعرض مفصلة جداً ، دون الاشارة الى أخنان الرياح . ولما كانت المربعات (الناشئة عن تقاطع) خطوط الطول والعرض ، صغيرة جداً ، فان الاتجاه الى الساحل بالخنين الشمالي الجنوبي والشرقي الغربي سليم جداً (٣٨) دون اثقال الخريطة بعدد كبير (من الرموز التي تدل على اتجاه الرياح والابرة المغناطيسية) ، مثلما هي الحال على خرائطنا . وتؤخذ أساساً لاستنتاجات غيرها . وعرض فاسكو داغاما على المعلم المسلم الاسطرلاب الكبير الخشبي الذي حمله معه واسطرلابات أخرى معدنية لقياس ارتفاع الشمس . فلم تبد أي دهشة على المعلم المسلم لرؤيته أمثال هذه الآلات . وقال أن المعالة (العرب) في بحر القلزم يستخدمون آلات من شبه مثلثة ، وارباعاً (٣٩) لأخذ ارتفاع الشمس وخاصة الكوكب (كذا) (٤٠) الذي يهتدون به في الملاحة . وأضاف : أما هو ومعالمة كمباية وسائر الهند ، فيهتدون في ملاحظتهم ببعض الكواكب الشمالية والجنوبية أيضاً ، وبيعض الكواكب الشهيرة الواقعة في كبد السماء من الشرق الى الغرب . ولا يأخذون ارتفاعها بالآلات شبيهة (بالآلات التي أراه اياها فاسكو داغاما) ، بل بالة شبيهة بالآلة التي يستعملها هو . ثم بادر الى جلب هذه الآلة المؤلفة من ثلاثة ألواح (٤١) خشبية وأراه اياها . وسوف نتناول شكل هذه الآلة وطريقة استعمالها في « الجغرافية العلمية » (٤٢) في الفصل المخصص لآلات الملاحة . فيكفي أن نعلم هنا الآن أن المعالة المسلمين يستخدمون الآلة المشار اليها لاجراء القياس الذي نستخدم لاجرائه عندنا الارباستريل (٤٣) التي سنتكلم عنها أيضاً وعن مخترعيها في الفصل المتو به (من الجغرافية العلمية) . واقتنع فاسكودا غاما بعد هذا الحديث وبعد أحاديث أخرى لاحقة ، ان هذا المعلم كنز ثمين له . فلكي لا يفقده ، ألقه في أقرب فرصة أتاحت له . واتجه الى الهند في ٢٤ نيسان ، وقطع هذا الخليج الكبير الذي يبلغ ٦٠٠ فرسخ من طرفه الى طرفه في مدة ٢٢ يوماً دون أن يلقي عقبة (٤٤) .

اذن طرح فاسكو داغاما مراسيه في كاليكوت بعد مضي أقل من شهر على اقلاعه أي في ٢٠ أيار (العقد ١ ، الكتاب ٤ ، الفصل ٨ ، ص ٣٢٨) . وأنزل الى الأرض المعلم كانا (كذا) لينبئ ملك البلاد بوصول الأسطول البرتغالي . وسافر المعلم العربي برأ من كاليكوت الى كابوكات (قابوقات ابن ماجد) ، وهي بندر يقع على مقربة من كاليكوت والى شمالها ويقيم فيها رجل مسلم اسمه أبوسعيد ، مكلف بمهام مراقبة الساحل . وكان أبو سعيد يعرف المعلم كانا ، فأضافه ليلة هو ورفيقه البرتغالي . واصل أبي سعيد من مملكة تونس ، على حد قوله وقد اتصل بالبرتغاليين في مدينة وهران عندما كانت

بعض المراكب البرتغالية ترتادها بأمر من الملك د. جاو الثاني ٠٠ (المرجع ذاته ، ص ٣٣) (٤٥) .

أما يوميات رحلة فاسكودا غاما ، فتنص باختصار على ما يلي : « يوم الثلاثاء ٢٤ نيسان ، خرجنا من ملندي ، ومعنا المعلم الذي أعطانا إياه الملك . واتجهنا الى مدينة اسمها كاليكوت ، أخبارها معروفة عند الملك المذكور . وكان طريقنا الى الشرق » (٤٦) .

٤ - وسجل دامياو دي غويس في حوليات صاحب الجلالة الملك د. ايمانويل : « أعطى ملك ملندي فاسكو داغاما معلماً ماهراً مسلماً من جوزرات ، اسمه المعلم كاناكوا ويسميه المؤلف «الربان كاناكوا» (٤٧) بعد بضعة أسطر .

٥ - ويروي دوارته باشيكو بريرا في « Esmeraldo de situ orbis » (ص ١٥٢ وما يليها ، طبعة ا. ا. داسيلفا دياس ، الجمعية الجغرافية ، لشبونة ، ١٩٠٥) الذي ألفه حوالي ١٥١٥ (المرجع ذاته ، ص ٤) ما يلي : « جرى فاسكودا غاما بمراكبه الأربعة وراء مصر ، فاكتشف المدينة الأثيوبية ملندي حيث جمع أخباراً عن الهند التي ذهب ليفتش عنها ٠٠ » .

٦ - ويتحدث كاموينس في النشيد السادس ، المقطع الشعري الخامس ، من لوزيادس ، عن المعلم دون أن يذكر اسمه : « فالمعلم (الذي أخذ فاسكودا غاما من ملندي) مستقيم . وقد دله على طريق أمينة . وهكذا أبحر الأميرال مطمئناً أكثر من ذي قبل » .

وفي مذكرتي عن « كوين لوين والملاحات القديمة بين المحيطات في البحار الجنوبية » (المجلة الاسيوية ، أيار - حزيران ١٩١٩ ، ص ٤٩١ - ٤٩٢) ، أشرت الى هذا اللقب المحير « مالمو كانا أو كاناكا » . ولم أستطع أن أشرحه . ثم أجريت تحريات اضافية ، وتمكنت أن أعرض التفسير التالي : لا شك أن الصيغة الصحيحة هي صيغة كستنهدا ودامياو دي غويس ، التي يجب قراءتها : المعلم كاناكا ، ويعني هذا التعبير رئيس الملاحة الفلكي . فكانا لفظ مأخوذ من التامول : كنگان ، كنگان أي « الحاسب أو الفلكي أو الكاتب » ، من اللغة السنسكريتية غنكة (٤٨) أي « حاسب أو فلكي » . ويروي دوارته بربوسا في كتابه (٤٩) أن الملوك لا يقدمون على عمل الا بعد استشارة الكاناكا ، وان بعض عظماء التجار (في ملبار) يفعلون الشيء ذاته قبل أسفارهم (٥٠) . اذن كاناكا اسم مهني ثابت بوضوح ، والمعلم كاناكا في أخبار الرحلات البرتغالية لقب (٥١) فقط . ولا يعطي اسم معلم فاسكودا غاما الا كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني .

٤ - مآخذ على تخريج فران :

هنا ينتهي غبرييل فران من عرض تمسكه بوثيقة النهر والي وتقديمه ما ظنه حججاً تدعم تأييده لها . فماذا كانت حصيلة جميع ما قرأناه في شرحه الطويل ؟

— أراد فران ، على حد قوله ، وهذا شأنه ، أن يوفي ترجمة المستشرقين دي ساسي و م . د . لوبيس لنصر النهروالي ، حقها من الدقة والصحة . فاستبدلها بنقل جديد الى الفرنسية ، يؤسفنا أن نقول انه حرف الأصل الغربي تحريفاً تاماً ، وبدل مضمونه على نحو مقصود في النواحي التالية على وجه التخصيص :

— فقد عين موقع المضيق الذي تفرق فيه المراكب البرتغالية ، وحوّل جبل القمر الى سلسلة جبلية تمتد الى رأس الرجاء الصالح ، ليصير طرفها جبلاً يمثل جانباً من المضيق اياه واقعاً في الشمال ، فأضاف لفظ « شمال » الى ترجمته . وأبقى بحر الظلمات في الجانب الآخر الذي وضعه في الجنوب ، فأضاف لفظ « جنوب » الى ترجمته أيضاً .

ولا يقبل العقل بهذا التصور الخيالي الجامح ، لتناقضه مع أول جملة فران ذاتها ، التي تقضي أن تمر المراكب البرتغالية ، الآتية من بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ، خلف جبال القمر ، لا جنوبها ، ومن الجهة الشرقية لأفريقية . وعندئذ فقط ، تصل الى المضيق المشؤوم ، الذي يتحتم أن يقع في شرق قارة أفريقية لا في جنوبها .

— واستبدل فران بحر الهند في الأصل العربي ، ببحر الهند الغربية في ترجمته . وليس في القرن الخامس عشر بحر يسمى بحر الهند الغربية . فهذا الاصطلاح حديث . وبحر الهند في عصر ابن ماجد معروف ، ويمتد من جزيرة القمر الى الصين ، ويسمى بحر الزنج مقابل ساحل أفريقية الشرقية .

— وجعل فران أحمد بن ماجد « رباناً يعمل عند البرتغاليين » ، اتصل به « الملندي » أي فاسكو داغاما في رأيه . فنصحهم أن يبتعدوا عن الساحل في ذلك المكان أي ساحل ملندي ، ثم يقتربوا من ساحل الهند ليتحاشوا الأمواج .

ويبلغ تشويه النص العربي هنا حده الأعظم . فلا ندري من أين جاء فران بفكرته أن أحمد بن ماجد عمل رباناً عند البرتغاليين ، ونصرف النظر عن الحديث عن الملندي (نسبة الى ملندة) بعد أن شرحنا هذا اللفظ من قبل . ونسترعي الانتباه أيضاً الى أنه نقل ساحل المضيق الخطر من رأس الرجاء الصالح حيث وضعه هو ، الى ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي بلفتنا الحالية . ونلفت النظر أخيراً الى أن فران ترجم « المكان » الذي قصد به النهروالي مضيق غرق المراكب البرتغالية ، ترجمتين مختلفتين : فمرة عنى به المضيق اياه ، ومرة أخرى ملندي ذاتها « التي استقل منها أحمد بن ماجد سفينة القيادة البرتغالية » (الكلام لفران) .

وهكذا نرى أن أداء فران لوثيقة النهروالي شوهها تشويهاً كلياً ، وحوّل معانيها تحويلاً تاماً ، للتوفيق بين « ترجمته الدقيقة » وبين الفكرة المسبقة الراسخة في ذهنه ، وهي أن أحمد بن ماجد بالذات ، ولا أحد سواه ، هو الربان الذي أخذ فاسكو داغاما الى كاليكوت . وقد سبق وحللنا وثيقة النهروالي ، وأبناؤها من نسج خيال صاحبها الذي يتلخص

ما قاله في جملتين : تعذر على البرتغاليين أن يجتازوا مضيقاً خطراً واقعاً الى جنوب جزيرة القمر ، وأن ينتقلوا من بحر الظلمات الى بحر الهند (أي الزنج) فأسدى اليهم أحمد بن ماجد نصيحة أنقذتهم من ورطتهم . وهذا الكلام من النهروالي مردود لناحيتين : ناحية تناقضه مع الأحداث التاريخية ، اذ أن البرتغاليين وصلوا الى مسنبيجي وملندي بعلمهم وجهدهم الخاصين ، وناحية استحالة وجود أحمد بن ماجد في جنوب جزيرة القمر ، وهو مكان لم يذهب اليه في حياته .

— ولا بد أن فران رجع الى المصادر العربية الأخرى ، فلم يجد فيها نصاً جديداً يؤيد مزاعم النهروالي أو يوضح ما غمض منها . كذلك ، نقّب كثيراً في متون المراجع البرتغالية ، فلاحظ أن رواياتها تتعارض في قضية ارشاد فاسكوداغاما وفي عدد المعاملة الذين أرشدوه وفي الأمكنة التي أخذهم منها . ولم يعثر على مرجع واحد ، يشير الى أحمد بن ماجد من بعيد أو قريب ، تصريحاً أو تلميحاً . لكنه خلص منها الى أن فاسكوداغاما اصطحب معه معلماً من ملندي الى كاليكوت . واستنتج قليلاً أن هذا المعلم هو أحمد بن ماجد الذي سماه النهروالي . وهذا الموقف مرفوض جملة وتفصيلاً .

— وسها فران عن كثرة المعاملة القديرين ، من شتى الأديان والانتماءات الأرضية (زنوج ، عرب ، هنود) ، المنتشرين في بنادر بحر الهند . وجميعهم مؤهلون ومستعدون لتقديم خدماتهم لمن يريد لها لقاء أجر يتفق عليه . وابن ماجد واحد من هؤلاء المعاملة . ويرجع هذا التقليد الى أن الناخوذة ، صاحب السفينة ، لم يكن رباناً أو معلماً ، لذلك يحتاج الى ربايين أو معاملة لاجراء مركبه . وهذا يعني أن الارشاد البحري الى جزيرة العرب والسند والهند وبلدان تحت الريح مباح ومتاح ، بالأجر النقدي ، لجميع الناس ولجميع الأمم في القرن الخامس عشر في حدود أصول وقواعد وأعراف يدركها أصحاب العلاقة . ولم يسبق أن ثارت ثائرة انسان لأن أحد المعاملة سار بمركب الى جهة من الجهات . فتلك مهنته . فلماذا تقوم الأرض وتقع على ابن ماجد فيما لو فرضنا جدلاً انه أرشد الفرنج ، وهو لم يفعل . فهذا الاتهام ينطوي ، ان جاز لنا تسميته اتهاماً ، على جهل مفضوح وبدعة تضليل وحكم سقيم .

— فالجهل المفضوح يتمثل في تناسي مؤهلات البرتغاليين الملاحية والتقليل من قدرتهم على الوصول الى الهند بعلمهم وجهدهم الخاصين . فمن استطاع أن يقطع آلاف الكيلومترات من لشبونة في بحر الظلمات المجهول ، ومن تمكن من الدوران حول رأس الرجاء الصالح والوصول الى مسنبيجي وملندي ، لا يعجز عن بلوغ أحد مرافئ الهند ، طال معه الزمن أم قصر . اذن سواء أرشدهم ابن ماجد أو غيره أم لم يرشدهم أحد ، فهم لا شك واصلون الى هدفهم عاجلاً أو آجلاً . والبرهان بلوغ الصينيين كاليكوت وهرموز وعدن ومقدشوه وملندي اياها ، وفرض سلطتهم على الملاحة في بحر الهند في مطلع القرن الخامس عشر ، وبطشهم بكل من عصاهم . فلم لا يسع البرتغاليين أن يفعلوا ما عمله الصينيون ؟

– وتكمن بدعة التضليل والحكم السقيم في الظن أن أحمد بن ماجد غير مجرى التاريخ بعمله – الذي لم يعمل به • ولو لم يقدم على فعلته النكراء – التي لم يرتكبها أصلاً – لما فقد العرب والمسلمون سيطرتهم على تجارة بحر الهند • والحقيقة أن لاذنب أصلاً لأحمد بن ماجد في هذا الحدث ، ولا ذنب أيضاً إطلاقاً لجميع المعاملة الآخرين الذين أرشدوا الفرنج قولا وفعلًا • • فالمسألة ليست مسألة أفراد يتصارعون ، بل قضية أمم وثنية وإسلامية وعربية مفككة أو مصابة بالفتن الداخلية أو مشرفة على الانهيار إن لم تكن منهارة • ف ساحل الهند مجزأ إلى مدن شكلت كل منها مملكة مستقلة تناصب جاراتها العداء • واليمن مليئة بالفتن الداخلية • والحرب سجال بين شريف مكة وشقيقه • والماليك منهارون يستعدون لتسليم مقاليد الحكم إلى العثمانيين الذين واجهوا مشكلة عويصة بعد فوات الأوان • وتقابل قوة البرتغال وتنظيمها ودعم مصارف جينوه وغيرها تلك الأمم المستضعفة • اذن الصراع عالمي ، تقبلته الهند والعرب والمسلمون من الصين في مطلع القرن الخامس عشر ، لأن الصين حافظت على الوضع الراهن وبقيت البلدان تتمتع بفوائدها الاقتصادية • لذلك لم ينشب نزاع مسلح إلا شواذاً • أما مع البرتغال ، فالطرق التجارية سوف تتغير ، ويحرم أصحاب الفوائد التقليدية من مكاسبهم الاقتصادية القديمة ، فلا بد من الاصطدام •

على الرغم من كل هذه الحجج ، انتشرت أفكار فران ، وقبلها المستشرقون الفرنسيون على وجه التخصيص ، ومنهم البير كاميرير •

ب – انضمام البير كاميرير بحماس إلى وجهة نظر فران :

وكتب البير كاميرير عن « معلم فاسكو دا غاما العربي » في كتابه « البحر الأحمر وأثيوبية وجزيرة العرب منذ العصور القديمة » ، فقال حرفياً :

« أدرك الأميرال العظيم – يقصد فاسكو دا غاما – عدم جدوى الاستمرار في مجازاة ساحل إفريقية الشرقية حتى مقدشوه ، فأقام قرابة عشرة أيام في ملنדה ، يسعى للحصول على معلومات وإفية عن الهند • وأسعده العظ • فاتصل بمعلم عربي شهير ، يعرف أدق التفاصيل عن بحر القلزم وبحر الهند وخليج فارس وسواحل الهند وجزائر تحت الريح والصين •

ومكن هذا اللقاء السعيد الأسطول البرتغالي من الانطلاق نحو الهند ، التي أخفيت طريقها حتى الآن عن الكفار الذين أوصلهم في أغلب الظن حظهم أو الصدفة إلى هذه الأرجاء •

وتتباين الروايات عن بدء العلاقات بين فاسكو دا غاما وبين هذا المعلم ، لا سيما عند المؤرخين الأول للاكتشافات البرتغالية ، خاصة كستنهيديا ودي باروس • وذكر الكاتب العربي قطب الدين المكي ، المسمى أيضاً بالنهر والي ، في كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني أن كبير الفرنج (الذي يسميه الملندي ، أي الأميرال) صادف هذا المعلم وأسكره • فباح له

هذا الأخير بسره في حالة سكره وقال له : « لا تقربوا من ساحل افريقية بعد ملندي شمالا ، انطلقوا بلا تردد نحو الباحة ، ثم اقتربوا من الساحل ، فتنجنبوا الأمواج العاتية » .

ولا تبدو هذه القصة مقبولة ، لأن المعلم ، مثلما سوف نرى ، كان جغرافياً عظيماً وملاحاً فريداً ، ومسلماً ديناً ، فلا يعقل أن يكون سكيراً . مع ذلك ، نجهل الأسباب التي دعت إلى حث فاسكو داغاما على هذا العمل الجريء والانطلاق في خضم المجهول عبر بحر الهند . ويسمى هذا المعلم تارة كونانيا ، وطوراً مالميو كونيا أو مالميو كانانيا ، وليست هذه التسمية سوى اسم مهنة ، وتصحيف تعبير « معلم كاناك » الذي يعني « رئيس البحر ، الفلكي » . وكان يُظن أن هويته ستظل مجهولة إلى الأبد . مع ذلك ، درس غبرييل فران الارشادات الملاحية العربية في القرون الوسطى ، وتوصل إلى التعريف به . بالفعل يخبرنا قطب الدين النهر والي إياه أن معلم فاسكو داغاما هو أحمد بن ماجد النجدي ، وهو عربي شيعي أو علوي ، من هضبة جزيرة العرب الوسطى ، ويرجح أنه كان يسكن جلفار .

هذا ما قاله البير كاميرير عن أحمد بن ماجد وعن فاسكو داغاما . وواضح أنه يكرر أفكار فران التي ناقشناها ، ولا يأتي بشيء طريف . أما تيودور شوموفسكي ، فساق إلى الباحثين حججاً جديدة مذهلة . فما هي هذه الحجج ؟

ثالثاً - حجج تيودور شوموفسكي الجديدة

فقد عثر هذا المستشرق على جميع ماظنه اثباتات جديدة في السفالية . واعتبر أن نية أحمد بن ماجد صافية وسليمة في هذه الأرجوزة ، وأن ما جاء فيها صحيح يجب الوثوق به والأخذ بمضمونه . وهذا موقف سليم ورأي سديد ، لا ينازع فيه أحد . لكن لنر كيف وصل هذا الباحث الكبير إلى براهينه ، قبل أن نفحص في جوهرها .

أ - نشر شوموفسكي « ثلاثة أزهار في معرفة البحار » لأحمد بن ماجد وفي طليعتها السفالية :

في عام ١٩٨١ ، نما إلى بعض العلماء ، ومنهم كراتشكوفسكي وفران ، خبر وجود نسخة وحيدة من ثلاث قصائد لأحمد بن ماجد في مكتبة معهد الاستشراق في ليننغراد .

وفي عام ١٩٥٧ ، نشر تيودور شوموفسكي هذه القصائد - ومنها الأرجوزة السفالية - بصورة بلا تحقيق ولا تدقيق ، على غرار ما فعل غبرييل فران قبله بثلاث قرن ونصف . لكنه أرفقها بترجمتها إلى اللغة الروسية وبفهارس وشروح متنوعة ، ووضع لها عنواناً على الغلاف هو « ثلاثة أزهار في معرفة البحار » لأحمد بن ماجد الملاح العربي وعنواناً آخر ضمن الغلاف هو « ثلاث راها منجات المجهولة (كذا) لأحمد بن ماجد ربان فاسكو داغاما . . . » .

وجاءت الأرجوزة السفالية أولى القصائد الثلاث المصورة في كتاب شوموفسكي ، وبلغ عدد أبياتها في الأصل العربي ٨٠٧ أبيات ، يقابلها ٨٠٥ أبيات فقط في الترجمة الروسية . وتبين لنا أن فارق البيتين بين الأصل العربي والترجمة الروسية ، ناشيء عن اهمال ترجمة بيتين أحدهما في ظهر الورقة ٩٣ والآخر في ظهر الورقة ٩٥ من المخطوطة المصورة . وقد حصرنا هذا السهو بعد مقارنة الأصل بالترجمة على الوجه الآتي :

اسقاط بيتين في الترجمة الروسية

رقم الورقة المصورة	عدد أبياتها	عدد أبيات الورقة المترجمة	رقم الورقة المصورة	عدد أبياتها	عدد أبيات الورقة المترجمة
٨٣ و	١٦	١٦	منقول	٣٦٨	٣٦٨
٨٣ ظ	٢٤	٢٤	٩٠ و	٣٠	٣٠
٨٤ و	٢٣	٢٣	٩٠ ظ	٣٤	٣٤
٨٤ ظ	٢٢	٢٢	٩١ و	٣٣	٣٣
٨٥ و	٢٧	٢٧	٩١ ظ	٣٠	٣٠
٨٥ ظ	٢٦	٢٦	٩٢ و	٣٠	٣٠
٨٦ و	٢٤	٢٤	٩٢ ظ	٣١	٣١
٨٦ ظ	٣٠	٣٠	٩٣ و	٣٤	٣٤
٨٧ و	٢٨	٢٨	٩٣ ظ	٣٧	٣٦
٨٧ ظ	٣٠	٣٠	٩٤ و	٣٤	٣٤
٨٨ و	٣٠	٣٠	٩٤ ظ	٣٤	٣٤
٨٨ ظ	٣٠	٣٠	٩٥ و	٤٢	٤٢
٨٩ و	٢٨	٢٨	٩٥ ظ	٤٠	٣٩
٨٩ ظ	٣٠	٣٠	٩٦ و	٣٠	٣٠
المجموع	٣٦٨	٣٦٨		٨٠٧	٨٠٥

اذن يتساوى عدد الأبيات في الترجمة الروسية وفي المخطوطة المصورة ويصبح ٨٠٧ أبيات ، متى تم تعويض البيتين المنسيين .

وتشرح الأرجوزة السفالية الملاحة الساحلية وفي أعالي البحار على ساحل افريقية الشرقية حتى بندر سفالة ، ومن هنا تم تسميتها السفالية . ولسنا في صدد بحث الملاحة ، وما يعنينا الآن هو انها تضمنت ، اضافة الى شرح الملاحة ، نبذاً عن الفرنج أي البرتغاليين وعن ذهابهم الى الهند ، استرعت انتباه شوموفسكي ، واعتبرها

دليلاً قاطعاً على وجود علاقة وثيقة بين ناظم الأرجوزة أي أحمد بن ماجد وبين الفرنج ،
والأما استطاع أن يتحدث عنهم بالتفصيل الوارد في أبيات السفالية . وما نحن نعيد
بعض ما رواه عن أخبارهم .

ب - أخبار الفرنج أي البرتغاليين في السفالية :

وتتوزع أخبار الفرنج في السفالية على ثمانية مقاطع و ٦٩ بيتاً ، عيناً موقعها في
الورقة المصورة وبين أبيات السفالية المحققة ، وأشرنا إلى صفحة ورودها في النص العربي
المحقق المطبوع . وكل ذلك مدون في الجدول الآتي :

أخبار الفرنج

رقم المقطع	رقم الورقة المصورة	عدد الأبيات المخولة	الموقع بين الأبيات المحققة	صفحة النص المحقق المطبوع
١	٩٢ ظ ٤ - ٧	٤	٥٢٦ - ٥٢٥	٣٥
٢	٩٣ و ٢٤ - ٣٤	١١	٥٦٦ - ٥٦٥	٣٧
٣	٩٣ ظ ١ - ١٨	١٨	٥٨٦ - ٥٨٥	٣٨
٤	٩٤ و ٢	١	٥٩٥ - ٥٩٤	٣٨
٥	٩٤ ظ ١٣	٩	٦٢٠ - ٦١٩	٤٠
٦	٩٤ ظ ٢٥ - ٣٤	١٠	٦٣١ - ٦٣٠	٤٠
٧	٩٥ و ١٢ - ١٢	١٢	٦٧٧ - ٦٧٦	٤٢
٨	٩٥ ظ ٢٩	١	٦٩١ - ٦٩٠	٤٣
	٩٦ و ١٥ - ١٦	٢		

٦٩

المجموع

- فالمقطع الأول يروي أن الفرنج زلوا في سفالة التي قلبت أمواج ساحلها الراجعة
مراكبهم في عيد ميكال . ويستدعي هذا الخبر تحفظين ، مع أن الملاحاة خطيرة حقيقة
مقابل شواطئ سفالة : أولهما أن تحديد تاريخ غرق المراكب البرتغالية بيوم عيد أحد
القديسين مستبعد بالنسبة إلى ابن ماجد ولا يحتمل أن يرد على لسانه ، وثانيهما أن مرور
البرتغاليين على سفالة واستقرارهم فيها جاء متأخراً ، ولم يتضمن تدوين الوقائع التاريخية
لما يسمى الاكتشافات البرتغالية أو التوسع البرتغالي تحطم مراكب برتغالية عند سفالة
في وقت من الأوقات .

بالفعل ، في عهد الحملات البرتغالية ، كانت كلوة تحكم سفالة التي لم تتمتع آنذاك بأهمية ملحوظة . ولم يعرج عليها فاسكو داغاما في حملته الأولى لأنه خاف أن يكون خليج نهرها عميقاً ويستعصي عليه الخروج سليماً منه . ثم مر بيدرو الفريز غبرال بأسطوله أمامها عام ١٥٠١ م/٩٠٧ هـ دون أن يتوقف فيها ، وأكمل طريقه الى منسبيجي . لكنه في طريق عودته فرز سانشو دانوفار في مركب واحد في مهمة استطلاع عنها . ورجع دانوفار الى لشبونة بعد يوم واحد من وصول غبرال اليها ، وأخبر أن سفالة جزيرة صغيرة واقعة في مصب أحد الأنهار ، وأن التبر يجلب اليها من منجم يقع في جبال بعيدة عنها . ولم يرس جاو دانوفا عام ١٥٠١ م/٩٠٧ هـ في مكان مأهول قبل منسبيجي . أما فاسكو داغاما ، في حملته الثانية ، فقد توقف في سفالة اثنين وعشرين يوماً ، ولم يحصل على ما تمنى من الذهب على حد قول دي باروس ، وأن كان كوريا يؤكد أن داغاما ذهب الى منسبيجي وأرسل الى سفالة بـرو آفونسو دي أغيار ، الذي عقد معاهدة مع شيخ سفالة ، ولحق بفاسكو داغاما في مالندي .

وفي عام ١٥٠٥ م/٩١١ هـ ، قرر الملك مانويل الأول أن يقيم حصوناً في النقاط الهامة على طريق الاكتشافات البرتغالية ، واختيرت سفالة وكلوة على ساحل افريقية الشرقية . ونزل بـرو دانهيا في سفالة ، وشرع ببناء الحصن المطلوب وقضى نحيبه قبل انجازه .

– ويتضمن المقطع الثاني بعض الأفكار الرئيسة . منها أن الفرنج زادوا معارف العرب العلمية في الملاحة ، وأن سيطرتهم انبسطت على الطريق البحرية من كلوة الى سفالة (١٧) ، ومنها الى الزقاق والى القمر ، مثلما احتلوا الجزر الغالدات والسعادات .

وفيه أن البرتغاليين جاؤوا الى كاليكوت عام ٩٠٦ هـ/١٥٠٠ م (١٨) ، وتاجروا فيها ، وظلموا الناس ، وابغضوا الاسلام . ومنموا مراكب مكة من المجيء اليها ، كما سدوا الطريق الى جردفون (١٩) . وقد أتوا من لجة البحر العميقة من جهة السودان ، وانتصروا على المغاربة ، وأصبحت الأندلس كلها تحت حكمهم (٢٠) .

ويتحدث عن انعطاف البر في شمال بلد الفرنج الى الشرق فالجنوب حتى الصين مروراً بأرض الأتراك ووصولاً الى سلسلة الأرض وحفرتها ، ثم عن وجود أربع جزر كبار في غربه ، ويخلص الى القول بأن البندقية سوق لجميع أوربة ، وأن العداء مستحکم بين الفرنج والهنود .

– وينفرد المقطع الثالث بخبر نزول الفرنج في جزيرة وشيكا .

– ويخبرنا المقطع الرابع أن الفرنج أتوا الى جزيرة وازة عام ٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م ، وبقوا فيها عامين كاملين ، ارتكبوا فيهما شتى المظالم . ثم غادروها الى الهند ، ورجعوا منها الى الزنج فلشبونة . وأعادوا الكرة عام ٩٠٦ هـ/١٥٠٠ م (إشارة مرة ثانية الى

حملة غبرال) ، فراحوا الى الهند ، واشتروا فيها بيوتاً ، ووقعوا معاهدة مع سامري كاليكوت ، وسكوا العملة في هذا البندر وأخذت الناس تتساءل عن أغراض أسفارهم .

– ويشير بيت المقطع الخامس الوحيد الى الأقسام الذين يسكنون الى شمال سفالة الأنهار ، ويذكر أن الفرنج يسندون هذا الخبر الى أحمد بن ماجد .

– ثم صار البرتغاليون يعرفون جيداً طريق الهند ، وألفوا السفر عليه ، على حد ما ورد في المقطع السادس ، فأصبحت حركتهم معروفة . فهم يخرجون من بلدهم ، ويصلون الى الجزر الخالدات بعد عشرة أيام . ويستأنفون سيرهم في البحر تسعين يوماً ، فيبلغون ساحل الحبشة في افريقية الشرقية . وهناك يلتقي مراكبهم القادمة من الهند بمراكبهم الخارجة من لشبونة وذلك في تسعين اليوم ، وتتبادل الأخبار والمعلومات (١١ شباط) . ويعتبرون أن تلاقيهم يتم في منتصف طريق الهند ويستغرق الوصول اليه ستة أشهر . ثم شرعوا يضعون حاميات من رجالهم في الجزر التي يمرون بها .

وتثني الأبيات الأخيرة من هذا المقطع على علم البرتغال الملاحي الذي يترقى به معاملة بحر الهند متى عرفوه . وكان ابن ماجد يتمنى لو يعيش حتى يتم الصلح مع الفرنج ليكسب منهم علماً عن بحر الروم وبحر الصين .

– وفي البيت الوحيد في المقطع السابع إشارة الى اكتشاف البرتغال لجزيرة زنجبار .

– أخيراً يؤكد المقطع الثامن لمعالم بحر الهند أن معارفهم ستتوسع ومهارتهم ستتحسن ان هم تعلموا الطرق الجديدة التي فتحتها الفرنج .

ويستخلص من استعراض مضمون المقاطع الثمانية السابقة واحداً واحداً انها تطرقت الى ناحيتين رئيسيتين :

الناحية الأولى : الالاح على ابراز تفوق الملاحة البرتغالية على الملاحة العربية خاصة وعلى الملاحة الهندية عامة ، بدليل اعتراف أحمد بن ماجد ، أعظم الملاحين العرب قاطبة ، ان الفرنج زادوا علمه علماً (مقطع ٢) ، وتمنيه أن يطول عمره ليستزيد من علمهم (مقطع ٦) ، وتوقعه توسع المعارف الملاحية عند المعاملة العرب ورفع مستوى مهارتهم عند اطلاعهم على العلم الملاحي الفرنجي .

الناحية الثانية : اجمال تاريخ اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند من الغرب ، أي عبر بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي ، وسرد بعض وقائع ذلك الكشف العظيم مؤرخة أو بدون تاريخ . فمن الأحداث المؤرخة ، بصرف النظر عن صحتها أو خطئها :

– وصول البرتغاليين الى جزيرة وازة عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م وبقاؤهم فيها سنتين ثم سفرهم الى الهند ، وعودتهم منها (قارن هذا التاريخ بتاريخ النهروالي) .

– ذهابهم الى كاليكوت عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م (ذكر مرتين) وما اقترن به من أعمال صيغت بالفاظ عامة أو مبهمة .

ومن الأحداث غير المؤرخة :

- تحطم مراكب البرتغاليين في سفالة ،
- ونزولهم في جزيرة وشيكا ،
- واكتشافهم جزيرة زنجبار .

ويسترعي الانتباه اعطاء بعض التفصيلات الدقيقة عن الطريق الغربية . منها :
ان قطع نصف الطريق الى الهند يستغرق ستة أشهر (من لشبونة الى أفريقية الشرقية) ،

- وان مراكبهم كانت تجري في مياه عمقها ثمانية أبواع فقط ،

- وان الحاميات وزعت على أماكن مختارة على طول تلك الطريق ،

- وان فتح الطريق الجيدة ترافق مع منع مراكب مكة أي المراكب العربية من دخول كاليكوت ، وسد طريق البحر الأحمر في وجه جميع المراكب عربية كانت أم غير عربية . وتلفت النظر ، في المقطع الثاني ، الإشارة الى سيطرة البندقية على تجارة التوابل في أوربة .

هذا ما جاء على لسان أحمد بن ماجد متفرقا في أرجوزته السفالية . وقد تلقاه المستشرقون المعنيون بالأمر بحماس بالغ في أوربة لا سيما البرتغاليون منهم .

ج - موقف المستشرقين البرتغاليين من أخبار السفالية :

واهتم المستشرقون والباحثون البرتغاليون بكتاب شوموفسكي المنشور عام ١٩٥٧ فيبادر الأستاذ ميرون ملكييل جيرومونسكي الى نقله الى اللغة البرتغالية ، وطبعت ترجمته عام ١٩٦٠ ، أي بعد ثلاث سنوات من نشر الترجمة الروسية . وشرع علماء البرتغال يعلقون على البحث الجديد ، ويمحصونه .

ومما جاء على لسان ١٠ تاكسيرا داموتاما يلي : « كتب أحمد بن ماجد راهمانج سفالة بعد بضعة أعوام من أخذه فاسكودا غاما من ملنדה الى كاليكوت . واعتمد تصنيفه في هذا الوقت المبكر على بعض المعارف المستقاة من مصادر برتغالية ، وحث الربابنة الشرقيين مرات عديدة على التعلم من البرتغاليين لأن « العلم والفن يأتياننا من الفرنج » ، على حد قوله . (إشارة الى مضمون المقطع الثامن) . ونحن نرى أن النصيحة الصادرة عن أعظم معلم عربي ، تعني في جوهرها ان أوروببي فاسكودا غاما ، عندما دخلوا بحر الهند ، كانوا يتفوقون على الربابنة الشرقيين ، بامتلاكهم خريطة ملاحية ، مطورة عن الخريطة التي رسمت في البحر المتوسط قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون ، حينما أضحت البوصلة ، وهي اختراع شرقي ، الآلة الملاحية الرئيسة عند الغربيين ، خلافا لما حصل في المحيط الهندي (٢١) .

وممن توسعوا في بحث السفالية أيضاً ليرينو برادس • ففي عام ١٩٧٠ ، طبع رسالتين ، خص الأولى منهما بشرح سبعة أبيات من السفالية تتضمن المقطع الأول ، وسماها « غرق المراكب البرتغالية عند جزر خورياموريا عام ١٥٠٣م / ٩٠٩هـ (٢٢) وشرح في الرسالة الثانية ثلاثة أبيات من السفالية (٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١) وردت فيها جزيرة ملايتي أي انهميان (٢٣) وطبع في شهر حزيران عام ١٩٧١ : « موجز راهمانج الربان العربي أحمد بن ماجد » (٢٤) ، عرف فيه بالسفالية، وعلق على ١٠٦ أبيات منها وقارن ملاحظة بلاده بالملاحه العربية اعتماداً على أقوال أحمد بن ماجد بالذات • ويلخص الجدول التالي أبحاث برادس •

موجز راهمانج الربان العربي أحمد بن ماجد

رقم البحث (روماني)	عنوانه	الأبيات المعلق عليها	صفحة الكتاب	ملاحظة
١	التعريف بالسفالية	-	١٢-١	
٢	جزيرة وازة	٧	١٣	
		١١	١٤	٤٥
٣	احالات برتغالية	٧	١٩	٨-٥
		٥	٢٥	
		٩	٢٦	٢٤-١٦
		٦	٢٧	٣٠-٢٥
		١	٢٨	٣١
		٩	٢٩	٤٠-٣٢
		٥	٣٠	٤٤-٤١
				٤٥
		٦	٣١	٥١-٤٦
		٤	٣٢	٥٤-٥٢
		٣	٣٣	
		٨	٣٤	٥٥
		٧	٣٥	٦٢-٥٦
		٣	٣٦	٦٥-٦٣
		٦	٣٧	٧١-٦٦
		٦	٣٨	٧٧-٧٢
		٣	٣٩	٩٠
		-		١٠٣-١٠٢
				٥٠-٤٠
٤ -	مقارنة الملاحتين العربية والبرتغالية			
	المجموع ١٠٦			

هذه بعض دراسات البرتغاليين لأخبار السفالية . فقد اقتصر على الرضى التام عن ما ظن أنه اعجاب أحمد بن ماجد بعلم الفرنج ، وعلى الخوض في أبحاث توضح ما أتى غامضاً أو مبهماً في الأقوال المنسوبة اليه، أو ماجاء منها في صيغ معممة يعوزها التدقيق على ضوء ما سجلته مصادرهم . ولم يثرفضول شومفسكي العلمي أو سواه ، لا إبراز تقدم الملاحة البرتغالية ولا تعظيم اكتشافهم الطريق الغربية ، وإن كان هذان الحدثان الفريدان في زمنهما يستحقان بحد ذاتهما كل تقدير في ميداني المعرفة والجغرافية . ولم يدر بخلد أحد من الباحثين أن يتساءل هل وضع ناظم الأرجوزة نفسه هذه الاستطرادات غير المألوفة في قصائده العلمية الملاحية الصرفة ، أم انها أضيفت الى شعره ونسبت اليه . وبذا نصل الى اعتبار أخبار الفرنج في السفالية استطرادات منحولة ومدسوسة .

د - أخبار الفرنج في السفالية استطرادات منحولة ومدسوسة :

فلدينا ستة أسباب جوهرية تدعونا الى تأكيد وجود انتحال مدسوس في السفالية ، يتضمن أخبار الفرنج مع اضافات أخرى . أولها اضطراب سياق العرض وانقطاع تسلسل الأفكار .

١ - اضطراب سياق العرض وانقطاع تسلسل الأفكار .

ويشعر القارئ بسهولة بهذا الخلل عندما يصل ، أثناء مطالعته السفالية في صورة شومفسكي ، الى خروج عن الموضوع تختلف لفته عن انشاء أحمد بن ماجد . ويظهر له مثلاً عندما يقرأ موسم السفر من سفالة في ١٧٠ من النوروز (٢ أيار ، وفي الأبيات ٥٢١ - ٥٢٨) ، المروض في ثمانية أبيات، تشرح دواعي وجوب الابحار في ذلك التاريخ وفي ذلك الموسم الوحيد . فاذا به يفاجأ بالفكرة تنقطع لتدس في سياق تسلسلها حكاية غرق سفن وادقال طافية على وجه الماء ومراكب مقلوبة وغرقى يتأملون (نعم حرفياً) بعضهم بعضاً (المقطع الأول) .

ويتكرر الوضع ذاته عندما يطالع القارئ السفر في الباحة من جزيرة كلوة الى بندر سفالة ، فاذا به يرى نفسه محمولا بعيداً عن هذه الطريق (المقطع الثاني) الى الجزر الغالديات والأندلس وحدود الفرنج (البرتغال) الشمالية والغربية ، والى البندقية المسيطرة على تجارة أوربة ، ثم ينقل فجأة الى شبه جزيرة الدكن الى ساحة القتال بين الفرنجة والهنود مقابل ساحلها الغربي ، ثم يعادسليماً معافى الى موضوع السفر في الباحة . وقس على ذلك سائر المقاطع .

ولا يجوز أن يحتج معترض بالاستطرادات الأدبية المألوفة في بعض النثر العربي ، ليبرر انقطاعات السياق ، لأن ابن ماجد ينظم شعراً أولاً وشعراً علمياً ثانياً وشعراً علمياً ملاحياً لم يسبق أن خرج فيه قيد شعرة عن موضوعه في جميع قصائده الأخرى ثالثاً وأخيراً .

وتضافر هذا السبب مع علم العرب في وقت متأخر بوصول الفرنج الى بحر الهند .

٢ - علم العرب المتأخر بوصول الفرنج الى بحر الهند :

ولا يفترض أصلاً أن يسترعي قدوم مراكب الفرنج الى الهند أو بحرهما انتباه العرب أو غيرهم ، لأن سفن جميع الأمم تجوب عباب هذا المحيط بحرية تامة وبلا رقيب أو حسيب . ومن يراقب أو يحاسب ما دام التفكك والانحطاط والاضطراب والضعف الشامل يسود في جميع البلدان المعنية . من ناحية أخرى ، ارتبط اطلاع العرب على فعال الفرنج بطبيعة الأحوال والأشياء في القرن الخامس عشر : فكل الأمور تجري ببطء شديد في هذا العصر ، ومنها السفن . ومنها أيضاً انتقال الأشخاص في البر لأنه عسير وطويل ونادر . ولا تتوفر لا في البر ولا في البحر وسائل اتصال حديثة سريعة شبيهة بما يملكه القرن العشرون . بالتالي كان لا بد أن يعلم العرب متأخرين بظهور الافرنج الذي أضفي عليه طابع المأساة بلا مبرر . فما جدوى العلم المتأخر أو المتقدم .

مهما يكن ، ينبغي تكريس هذا الواقع الأليم . والمؤرخون اليمنيون المعاصرون للأحداث ، وهم مثقفون ومطلعون وقريبون من مسرح الوقائع المادية ، مثل ابن الديبع أو بامخرمة ، لم يشيروا اليها الا في عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ، أي بعد مرور خمس سنين على حصولها . ولم يعلم بها العرب ، كجماعة ، ولم يدركوا خطورتها ، الا بعد مهاجمة الفرنج لبندر عدن عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م . أما المؤرخون المتأخرون اليمنيون مثل ابن المطهر ، فقد نقلوا عن المؤرخين المعاصرين ، ولم يأتوا بشيء جديد . وأما المؤرخون الحجازيون مثل النهروالي ، أو المصريون مثل ابن آياس ، فلا يعتد بكلامهم لأنهم أوصلوا الفرنج الى الهند عام ١٤٩٥ م / ٩٠١ هـ أي قبل عامين من تحركهم من لشبونة ، وثلاثة أعوام من بلوغهم ملندي .

ويستتبع هذا الواقع الاستنتاج بأن لا أحد من العرب أو اليمنيين يستطيع أن يتحدث عن البرتغاليين قبل عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م أو عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م في أضعف الاحتمالات . وينطبق هذا الكلام على ابن ماجد اليمني ذاته ، الذي لا يسهه ، لو فرضنا أنه لا يزال على قيد الحياة ، أن يتحدث عن الفرنج حتى في عام ٩٠٨ هـ لأن آخر قصيدة نظمها يعود تاريخها الى عام ٩٠٦ هـ . وبذا نصل الى السبب الثالث الذي يدعونا الى الاعتقاد بأن أخبار البرتغاليين في السفالية ملفقة ، نعني طعن أحمد بن ماجد في السن ووفاته .

٣ - طعن أحمد بن ماجد في السن ووفاته :

فلو عدنا الى ما قلناه من قبل عن سنه ومولده ووفاته للاحظنا انه ولد عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م ، وانسحب من العمل في البحر عام ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م ، واعتكف في بيته في مكة أو في صعدة ، وأن عمره بلغ ٧٥ سنة عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، و ٨١ سنة عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م ، وأنه لم يعط دليلاً على بقائه على قيد الحياة بعد هذه السنة .

بالتالي لا يعقل أن يتكلم عن أشياء لم يعرفها أحد في جزيرة العرب ولا مواطنوه في اليمن ، ولا هو باعتباره انصرف عن العمل في البحر منذ عام ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م أي قبل أن يغادر فاسكو داغاما لشبونة بأحدى عشرة سنة ، واستكن في البر بعيداً عن

الأجواء الملاحية في عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤ م . ولا ريب انه كان قد انتقل الى رحمة ربه ،
عندما هاجم البرتغاليون عدن وسمع جميع الناس بهم .

وأهم من الأسباب الثلاثة السابقة أن أحمد بن ماجد لا يعرف ملندة .

٤ - جهل أحمد بن ماجد ملندة :

فهو لم يزرها ، ولم يدخلها بمركب في حياته . ولا علاقة له البتة بملكها الزنجي .
ولم ترد في حاويته ولا في كتاب فوائده ، ولا في قصائده أو أراجيزه باستثناء السفالية
حيث ذكرها مرة واحدة في البيت ٢٨١ (المخطوطة المصورة : ٨٨ ط ، بيت ١) منها :

وبعدما أولا ترى ملندي وقيل رأسه طويلا يبدى

ونلفت الأنظار الى فعل « قيل » الذي يثبت انه يتحدث عنها سماعاً ، والى فعل
« ترى » الذي يعني انه لا يعرف مكانها الا من بعيد : من البحر فقط .

وتأويل جهله لها وتعليقه ميسوران : فهي لم تكن بندراً دولياً في زمانه ، فامتنع
عن ادراجها في عداد بنادر الحبشة الشهيرة التي أشار إليها في كتاب الفوائد حيث قال :
« ... أرض الحبشة الجنوبية الشرقية . وفيها بنادر جمة للمسافرين أشهرها مقدشوه
وبراوة ومنبسة وكلوة (ص ٢٧٢-٢٧٣) . ولم تصل في الماضي الى هذه المرتبة مطلقاً .
ويعتبرها الادريسي (٥٦١ هـ / ١١٦٥ م) في القرن الثاني عشر مدينة واقعة على
ساحل البحر ، يصطاد أهلها السمك ويجففونه ، ويستخرجون الحديد من مناجمه عندهم
ويصنعونه . ويقول عنها أبو الفداء (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) في القرن الرابع
عشر : « وملندة من مدن الزنج . وفي غربها خور كبير ينزل اليه نهر من جبل القمر .
وعلى شطي هذا الخور عمائر كبيرة للزنج . وفي الجنوب عمائر القمر . وفي شرق ملندة
الخرتي ، وهو جبل مشهور عند المسافرين يدخل في البحر نحو مائة ميل آخذاً الى الشمال
بتشريق ، ويظهر في البر آخذاً نحو الجنوب مستقيماً نحو خمسين ميلاً . ومن غرائب
أن ما في البر منه معدن الحديد وما في البحر منه فيه حجر المغناطيس الجاذب للحديد .
وفي هذه المدينة سحرة الزنج » .

اذن ضعف أهمية ملندة أبعد أحمد بن ماجد عنها . ونحن نعلم أن علاقاتها الوثيقة
بالبرتغاليين أضفت عليها طابعاً خاصاً ، ولادور لها في القرن الخامس عشر أو القرون
الغابرة . فلم يذهب إليها ولا مرة واحدة في حياته . فكيف يجتمع فيها بفاسكوداغاما ،
ومن أين يتلقى الأخبار عنهم اذا لم يتصل بهم أبداً ، ولا يفترض أن يعرف شيئاً عنهم الا
ما عرفه مواطنوه منذ هجوم الفرنج على عدن عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م ، علماً بأنه كان قد
توفي في هذا التاريخ .

ويحسم النقاش حسماً باتاً تاريخ نظم السفالية .

٥ - تاريخ نظم السفالية :

ولا يغرننا أن السفالية لا تحوي ما يحدد تاريخ نظمها صراحة . فالقصيدة الذهبية سميتها باسمها في بيتها ١٦٢ :

ومن قال سوفالية قد هدى بها هنوداً وأهل الزنج ثم المغارب

وهذا يعني انها نظمت قبل الذهبية . وللذهبية نسختان تعود احدهما الى عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩ م . اذن تم تصنيف السفالية قبل هذا الوقت ، أي في الحد الأدنى ، ثماني سنوات قبل أن يغادر فاسكوداغاما لشبونة (فاسكو داغاما : ٩٠٣هـ/١٤٩٧ م) في مقاربة أولى . أما اذا اعتمدنا نسخة الذهبية الأخرى التي نظمت قبل عام ٨٨٠هـ/١٤٨٥ م ، فيعود نظم السفالية الى قبل هذا التاريخ ، أي الى ٢٢ سنة قبل أن يتحرك الاسطول البرتغالي باتجاه بحر الهند لأول مرة ، في الحد الأدنى .

فعلى هذا الأساس ، لا يعقل أن يتحدث أحمد بن ماجد في السفالية عن وقائع مادية أو أحداث تاريخية جرت بعد انقضاء مدة طويلة جداً على نظمه هذه الأرجوزة ، أي أكثر من ثمانية أعوام أو أكثر من ٢٢ عاماً حسب نسخة الذهبية المختارة .

بالتالي لا يمكن أن تتضمن السفالية أي خبر عن الفرنج . وكل الأخبار الواردة عنهم فيها مدسوسة ومنحولة .

ولا يرقى الشك الى هذا الاستنتاج بعدمعرفة العدد الصحيح لأبيات السفالية .

٦ - العدد الصحيح لأبيات السفالية : ٧٠١

ويسترعي الانتباه أن أحمد بن ماجد درج في أول عهده بقرض الشعر ان يحدد عدد أبيات قصائده . مثال ذلك :

في عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠ م ، نظم القصيدة القافية في معرفة المجهولات من النجوم اللواتي قيدوا بالمنازل جيداً ، وقال في بيتها ال ٣١ :

وأعدادها أعداد شهر وعشره كذلك جاءت كالعروس المقرطق

أي ان أبياتها ٣٣ بيتاً ($30 + 30 = 30$) .

وفي عام ٨٦٦هـ/١٤٦١ م ، نظم حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، وقال في البيت ٩٥ من الفصل ١١ ، منها :

جميعها ألفاً وثمانين أتت تزيد بيتين لذاك قد وفّت

أي ان عدد أبياتها ١٠٨٢ بيتاً .

وبين عام ٨٦٦ هـ و ٨٨٠ هـ ، نظم الأرجوزة السفالية . وجاء فيها في البيت ١٧ من الورقة ٩٦ وجه من الأصل العربي المصور (= البيت ٧٩٤ من المخطوطة أي البيت ٦٩١ من النص العربي المحقق) :

هي سبع مائة ، بيت يزيد عنها عن أحمد السعدي احفظنها

وبذا يكون عددها قد تحدد بدقة وتعين مصنفها أيضاً . ويتمارض هذا الرقم ٧٠١ مع الرقم ٨٠٧ من المخطوطة المصورة . وهذا يعني أن أبياتاً أقحمت في السفالية بلغ عددها ٨٠٧ - ٧٠١ = ١٠٦ أبيات .

وقد عيناها بالتمام والكمال ومنها الـ ٦٩ بيتاً المتضمنة الاخبار عن الفرنج . وهكذا تنهار حجج شوموفسكي ، وتتلأشى جميع التصورات المبنية عليها ، ويخرج أحمد بن ماجد المظلوم ناصع الجبين ، وتتجلى الحقيقة بوجه أنصع ، وهذا أهم .

أخيراً لا نرى داعياً لأن نسترسل في الغوص في الموضوع ، ونتكلم عن رأي المستشرق الانكليزي جيرالد ر . تيبترز الذي انفرد باتخاذ موقف متحفظ من الارشاد ، لم يقطع فيه لا سلباً ولا ايجاباً حتى الثمانينات .

لكن قد لا يغفر لنا الباحثون العرب ان نختم هذا التقصي دون الاشارة الى موقفهم . لذلك سنقول كلمة موجزة عنه .

رابعاً - موقف الباحثين العرب من قضية الارشاد

لا بد لي أن أعترف أن ما قرأته باللغة العربية عن أحمد بن ماجد أو علمه محدود جداً أو نادر الأندرتة ، شمل نبذاً أو مقالات قصيرة نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق وفي مجلة العربي الكويتية وفي مجلة العرب السعودية أو محاضرات ألقى في أحد المؤتمرات العلمية ، أو كتباً تبحث في الجغرافيا التاريخية أو الملاحاة عامة وكتيباً واحداً عنوانه « ابن ماجد الملاح » . ولا شيء آخر . والسبب بسيط يتلخص في أن الباحثين العرب لم يتفرغوا حتى الآن أو لم يجدوا لديهم متسعاً من الوقت يهتمون فيه بنفائس ابن ماجد ، فآلقوا هذا العبء على كاهل المستشرقين ، واكتفوا بنقل آرائهم .

أ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق :

ففي مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، نشرت نبذتان لسعيد الكرمي وبولس خوري . فسعيد الكرمي وصف مخطوطة الظاهرية . ونقل بولس خوري بعض آراء فران .

ب - مجلة « العربي » الكويتية :

ونشرت العربي بحثاً عنوانه « ابن ماجد بحار العرب الأول » للاستاذ قدرى حافظ طوقان ، في الستينات . وفي كانون الأول عام ١٩٨٣ ، صدر فيها ثلاث صفحات ، اعداد

الدكتور أمين الطيبي ، عنوانها « الملاحة البحرية » ، أراد فيها أن يعطي القراء عجالة عن ترجمة ج. ر. تيبس لكتاب فوائد ابن ماجد ، الذي زعم أنه صدر « في الآونة الأخيرة » (طبع عام ١٩٧١ أي منذ ١٢ سنة) ، ولخص فيه دون أن يدري ، آراء فران في قضية الارشاد ، وأبان موقف المستشرق الانكليزي المتردد دون أن يشعر ، وشوه عناوين كتاب الفوائد ، فأثبت انه لم يره في حياته لا مطبوعاً ولا مخطوطاً .

ج - مجلة العرب السعودية

ونشر فيها الأستاذ عبدالله الماجد مقالة بعنوان « الربان النجدي أحمد بن ماجد » . ولم يخف انه من مؤيدي أقوال فران وشوموفسكي .

وألقي الدكتور عبدالهادي هاشم محاضرة بعنوان « ليث البحر ابن ماجد » ، وألقى الأستاذ محمد رضا الشبيبي محاضرتة الموسومة « ثقافتنا البحرية وشهاب الدين أحمد بن ماجد » وكان ذلك في الكويت عام ١٩٥٩ .

ولا نود التحدث عن كتاب « ابن ماجد الملاح » للدكتور أنور عبد العليم ، ولا عن كتاب « العرب والملاحة في المحيط الهندي » لجورج حوراني ، ولا عن كتاب « أضواء على تاريخ اليمن البحري » للأستاذ حسن صالح شهاب ، لضيق المقام ولتخاشي الخروج عن الموضوع ، فنكتفي بذكر رأيهم في الارشاد .

فالدكتور أنور عبد العليم يقول : « ويرجع الفضل في الواقع في التعرف على أن ابن ماجد كان هو المرشد الذي قاد اسطول فاسكودي جاما الى الهند الى جهود المستشرق الفرنسي الألمي جبرييل فران عام ١٩٢٢ » .

ويقول جورج حوراني (٢٦) : « كان دي جاما يبحث بشرق افريقية عن دليل يحمله الى الهند ، فلم يجد الا أحمد بن ماجد . فكان من سخریات التاريخ أن ملاحاً عربياً كبيراً ساعد على القضاء على الملاحة العربية » .

ويقول حسن صالح شهاب (٢٧) : « وابن ماجد هذا هو شهاب الدين أحمد بن ماجد الذي قاد سفن فاسكو داغاما من ماليندي بشرق افريقية الى كاليكوت بساحل الهند الغربي ، فاستحق بذلك بغض البحارة والتجار العرب له ، لأنه عجل بزوال سيطرة العرب على تجارة المحيط الهندي . وظلت خيانتة هذه تتردد على ألسنة البحارة ، جيلاً بعد جيل ، حتى زمن قريب جداً . مع أنه كان باستطاعته ، كما قال علي النجدي ، الريان الكويتي المشهور ، لآلآن فاليارس ، أن يقود السفن البرتغالية الى صخور جزر الفاو (كالديف) فيحطمها .

وتوحي هذه الاستشهادات أن أصحابها موافقون على أقوال النهروالي وفران ، ويحملون أحمد بن ماجد مسؤولية زوال السيطرة العربية على تجارة المحيط الهندي .

بالتالي لاموقف لهم من قضية الارشاد لأنهم يتبنون مواقف غيرهم ، دون أن يتساءلوا اذا كان ابن ماجد قام فعلا بهذا العمل ، ودون أن يخطر لهم ببال أن وصول الفرنج الى الهند محتوم عاجلا أو آجلا حتى لو لم يساعدهم أحد . فمن قطع ثلاثة أرباع المسافة الى الهند يستطيع أن يقطع الربع الأخير ولن يحرم الوسائل ما دامت لديه المؤهلات . فقد تبدلت معطيات التجارة العالمية بفتح الطريق الغربية ووجود البرتغاليين على الساحل الافريقي من بحر الهند ، حتى قبل عبورهم اياه وانتقالهم الى الشاطئ الآخر . وأصبحت سوق الشرق مفتوحة أمام الغرب بعد أن بلغت طلائعه مشارفها . فلم يعد يجدي تصغير فعال وتكبير فعال . فالكل ، عرب وعجم ، طالب صيد ، وقاصد ربح وكسب : العرب عن الطريق الشرقية والغرب عن الطريق الغربية . ولا ريب أن المتهم البريء ، أحمد بن ماجد ، وقف الى جانب أهله في الصراع الاقتصادي ، بعلمه وفنه ورؤيته الواضحة ، عندما كان حياً قبل مجيء الأوروبيين .

ابراهيم خوري

□ الحواشي :

- ١ - والده الشيخ علاء الدين ابو العباس ، احمد بن شمس الدين محمد بن قاضي خان ، بهاء الدين محمد بن يعقوب بن حسن بن علي بن محمد العدني . اذن أصلهم من عدن ، وقد هاجرت أسرته قديماً الى نهراوله في ولاية جوزرات ، واستوطنت هناك . ومن هنا لقب النهروالي .
- ٢ - غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة المسمى البرق اليماني في الفتح العثماني ، تأليف قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- ٣ - المرجع ذاته ، ص ١٨ - ١٩ . وتوصل تعني تقرب من الناس وتلطف اليهم في سبيل الحصول على شيء معين .
- ٤ - السنا الباهر بتكميل النور السافر في اخبار القرن العاشر ، مخطوط ، ورقة ٧ .
- ٥ - هو وجيه الدين ابو عبدالله ، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن علي بن يوسف بن أحمد بن عمر الشيباني الزبيدي المعروف بابن الديبع (٨٦٦ هـ / ١٤٩١ م - ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) وله أيضاً قرعة العيون في اخبار اليمن الميمون .
- ٦ - هو عفيف الدين أبو محمد عبدالله الطبيب بن عبدالله بن أحمد بن علي بن أحمد بن ابراهيم بامخرمة الحميري الشيباني الهجراني الحضرمي العدني الشافعي (٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م - ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) وله تاريخ ثغر عدن وقلادة النحر في وفيات اعيان الدهر .
- ٦م - كتاب الفوائد ، ص ٢٣٥ ، س ١١ - ١٣ .
- ٧ - المرجع ذاته ، ص ٣٨٠ ، س ٨ - ١٢ .
- ٨ - المرجع ذاته ، ص ٣٠٧ ، س ٥ - ٦ .
- ٩ - المرجع ذاته ، ص ٢٣٥ ، س ٨ - ص ٢٣٦ ، س ١ .
- ١٠ - المرجع ذاته ، ص ٢٨٦ ، س ١ - ٤ .
- ١١ - أرسل الملك مانويل الفونسو دي البوكيركي الى الهند عام ١٥٠٣ م ، ليسترجع كشن ، فاستكشف جزيرة القمر (١٥٠٥) واستولى على سقطرة (١٥٠٦) وهرموز (١٥٠٧) . وسمي نائب الملك في الهند ، ووسع امبراطورية البرتغال حتى سيلان وملاقة (١٥١١) ، ومات عام ١٥١٥ في كوه .

١٢ - هوبسن جويسن ، ص ٥٦٧ ، عمود ١ ، س ١ - ٥٧

١٣ - يقول ياقوت الحموي عن جزيرة القمر في معجم البلدان : « والقمر أيضاً جزيرة في وسط بحر الزنج . ليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها » . ويقول عن بحر الزنج : « هو بحر الهند بعينه وبلاد الزنج منه في نحو الجنوب تحت السهيل » وله بر وجزائر كثيرة كبار واسعة .

١٤ - كتاب الفوائد ، ص ٢٩٣ ، س ٢ - ٤

١٥ - يقول ياقوت الحموي عن البحر المحيط في معجم البلدان : « ومنه مادة سائر البحور المذكورة ههنا غير بحر الخزر ، وقد سماه أرسطاطاليس في رسالته الموسومة بيت الذهب : أوقيانوس ، وسماه آخرون بالبحر الأخضر . وهو محيط بالدنيا جميعها كاحاطة الهالة بالقمر . يخرج منه شعبتان : احدهما بالمغرب والأخرى بالشرق . فاما التي بالشرق فهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج . والشعبة الأخرى في المغرب ... »

١٦ - كتاب الفوائد ، ص ٢٩٣ ، س ٥ - ٨

١٧ - انظر ص ٤٤ من كتاب أراجيز ملاحية السفالية - الملحقية - الثانية ، أحمد بن ماجد ، تحقيق ابراهيم خوري .
١٨ - انظر ص ٤٤ - ٤٥ من الكتاب نفسه .

١٨ - اشارة الى حملة بيدرو الفريز غبرال (١٥٠٠-١٥٠١) .

١٩ - انظر ص ٤٤ - ٤٥ من الكتاب نفسه .

٢٠ - سقطت مملكة غرناطة في ٢ ذ ٢ عام ١٤٩٢ م .

21 — Méthodes de navigation et de cartographie nautique dans l'Océan Indien avant le XVI^e siècle, par Teixeira Da Mota, 1963.

22 — Naufragio de navios portugueses nos ilhas Curia e Muria em 1503 por Leren Barradas. 1970.

23 — Inhambane de Outrora por Leren Barradas, 1970.

24 — Sobre o roteiro de Sofala do poloto arabe Hamad Ibn Madjid, pelo Eng. Leren Barradas.

٢٥ - ابن ماجد الملاح ، ص ٤٩ .

٢٦ - العرب والملاح في المحيط الهندي .

٢٧ - أضواء على تاريخ اليمن البحري ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

★ ★ ★

□ حواشي فران :

١ - يوميات رحلة فاسكو داغاما عام ١٤٩٧ ، الطبعة الثانية ، ا . هر كولانو وكستيلودي بيبنا ، لشبونة ١٨٦١ ، قطع ثمن ، ص ٤٩ .

٢ - دا آسيا Da Asia, dos Feitos que os Portuguezes fizeram no descobrimento e conquista dos mares e terras do Oriente,

العقد ١ ، الكتاب ٤ ، الفصل ٦ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ من الطبعة الصغيرة لعام ١٧٧٨ . تعود طبعة العقد الاول الأولى الى عام ١٥٥٣ .

3 — História do descobrimento e conquista da India pelos Portuguezes.

تاريخ

الكتاب ١ ، آخر الفصل ١٢ وبداية الفصل ١٣ ، ص ٤١ من طبعة ١٤٣٣ ، قطع ربع ، أنجز نشر الطبعة الأولى من هذا الكتاب في ٢٠ تموز ١٥٥٤ (كذلك ص ٢٧٨ فيما يلي) .

٤ - حوليات صاحب الجلالة الملك د. إيمانويل كتبها دامياو دي غويس . المجلد ١ ، الفصل ٣٨ ص ٨٧ من طبعة كويمبرا ، قطع ربع ، ١٧٩٠ . نشرت حديثاً طبعة جديدة من هذه الحوليات في « المؤلفات البرتغالية النادرة » ، مجموعة آ ، ٤ مجلدات ، قطع ثمن ، كويمبرا ، ١٩٢٦ في مطبعة الجامعة ، بفضل ج. م. تكسيرا ، دي كرفلهو ، وديفيد لويس . وهذه الطبعة الجديدة مطابقة تماماً للأولى التي طبع القسم الأول منها في لشبونة ، وأنجز في ٢٧ تموز ١٥٦٦ . وتقع إعادة الطبع الجديدة في أربعة مجلدات محشاة ومنتهية بفهرس . وقد علق على المجلد الأول الماسوف عليه تكسيرا دي كرفلهو ، وعلق م. ديفيد لويس على المجلدات الثلاثة الباقية وقد كتب هذا العالم الأخير أيضاً مقدمة هامة لهذه الطبعة الجديدة . وذكر فيها أن اسم المؤلف دامياو دي غواس . ويقع المقطع المقصود في ص ٨١ من المجلد الأول .

٥ - جاء في كتاب « ملاحه فاسكوداغا » قائد جيش ملك البرتغال عام ١٤٩٧ ، حررها أحد نبلاء فلورنسة الذي عاد الى لشبونة مع الجيش المذكور (طبعة ش. شيفر ، باريس ١٨٩٨ ، قطع ثمن ، ص ١٤ : خطر للقائد أن ينزل الى البر (في ملندي) ليرى هذا المكان بنفسه ويتأمل به عن كتب فاخطر ملكهم بالأمر ، فجاء ليحييه ويلافظه . وعند السفر ، أعطاه معلماً يتكلم اللغة الإيطالية (كذا) ليقوده من الخليج الواقع على رأس ساحل النيوبي (الى كاليكوت) .

٦ - لهذا الكتاب مخطوطات كثيرة في أوربة وفي الشرق .

٧ - يقصد مضيق جبل طارق . ظن قطب الدين أن الأسطول البرتغالي جاء من البحر المتوسط .

٨ - لويس : ويلجون ، بتشديد الجيم .

٩ - في المحيط الأطلسي . يقول قطب الدين أيضاً في كتابه الاعلام باعلام بيت الله الحرام (طبعة وستنفلد ، مجلد ٣ ، ١٨٥٧ ، قطع ثمن ، ص ٢٤٦ ، س ٦) ما يلي : « كانت حملة (الأمير حسن الكردي) موجهة ضد الفرنج (= البرتغاليين) الذين ظهروا في بنادر الهند الغربية ووصلوا اليها من بحر الظلمات (الذي يقع وراء جبال القمر القائمة في الموضع الذي ينبع منه بحر النيل . وصل (الفرنج) الى الهند الغربية ، وبلغ سلبهم وضردهم جزيرة العرب وبنادر اليمن . ينطبق اسم « بحر الظلمات » أيضاً على القسم الجنوبي الغربي من المحيط الهندي . انظر مثلاً هذا الشعر من أرجوزة قبلة الاسلام (مخطوطة آ ١ ، وجه الودقة ١٣٦ ، س ١١ :

..... هي قبلة الجبوش مع بر الظلم

في آخر السفال ثم القمر وجباب والشجعا وجزر البحر

١٠ - الأصل مادة ، لويس : مادة .

١١ - يعثر على الايضاحات ذاتها في كتاب الاعلام لقطب الدين (انظر الحاشية ٩) . يبدو حسب هذين النصين ان المؤلف كان يتصور وجود سلسلة جبلية تمتد عبر فارة افريقية ، من الشرق الى الغرب . ويصل طرف جبال القمر حتى شاطئ المحيط الأطلسي الذي يقع ، حسب هذا المفهوم لتضاريس افريقية ، وراء جبل القمر ، أي في الجهة الغربية . حول هذه الجبال ، انظر ماتقدم ، الحاشية ٩ ، والرحلة المصرية لعبد اللطيف ، ترجمة وتعليق سيلفستر دي ساسي ، باريس ١٨١٠ ، قطع ربع ، ص ٧ ، حاشية ٢ ، ومقالاتي جزر رامي ولامري واق واق والقمر ومدغسكر عند الجغرافيين العرب ، المحلة الاسيوية ، تشرين الثاني - كانون الأول ، عام ١٩٠٧ ، ص ٥٠٦ وما يليها . طبعا لا قيمة لهذه الشروح . انظر التاويل الذي طرحته في مقالي « كونلون والملاحات القديمة بين المحيطات في البحار الجنوبية ، المجلة الاسيوية ، ايلول - تشرين الأول ، عام ١٩١٩ ، ص ٢٠٣ وما يليها .

١٢ - الأصل : المسرق .

١٣ - ينبغي أن يفهم النص هكذا : ذهبوا الى الشرق مارين بمكان ، اي مجاوزين رأس الرجاء الصالح .

١٤ - أي : بمضييق .

١٥ - المقصود بداهة المرور برأس الرجاء الصالح .

١٦ - يقطع لوبيس الجملة على نحو آخر ، ويترجمها على الوجه التالي :
« ... do qual um dos lados e uma montanha e o outro o Mar Tenebroso; este lugar e tao tempestuoso, que os navios dos Franges nao ousavam approximar-se com receio de serem quebrados; e nenhum delles se salvava » .
انظر ان تاويلي يؤدي معنى النص على وجه اكمل .

١٧ - تشير هذه الجملة فيما يبدو الى محاولات جديدة فاشلة لتجاوز رأس الرجاء الصالح . لكن لا علم لنا بحصول شيء منها قبل فاسكو داغاما ، فيما عدا رحلة برتولومي دياز .

١٨ - المخطوطة ١٦٥٠ : الافرنج .

١٩ - المخطوطات السبعة الأولى (١٦٤٤ - ١٦٥٠) : الى ملندي . لوبيس : الى ملندي . المخطوطة ٥٩٢٧ : الى بلندي . كل هذه الصيغ خطأ ، وصوابها الملندي ، وهي الصيغة العربية للفظ الميرتي في اللغة البرتغالية . انظر الحاشية التالية .

٢٠ - يقول دي ساسي (مذكرات ومختارات ، مجلد ٤ ، ص ٢١٤ وما يليها) هنا في الحاشية : الملندي (الصورة في المخطوطات) أي جزيرة ملندي . اعتبر دي ساسي ملندي النسبة الى اسم ملندي . طرأ تصحيف على اسم كبير الفرنج هنا : لعله فاسكو داغاما . والمعروف أن ملك ملندي استقبله استقبالا حسنا واعطاه ربانا ماهرأ ليقود اسطوله الى كاليكوت . ويطلق المؤرخون الشرقيون لقب الملندي على الميدا نائب الملك في الهند ، مثلما يعلمنا تكسيرا في رحلته ، ترجمة فرنسية ، مجلد ٢ ، ص ١٢٠ . ويقول جان دي باروس (عقد ١ ، كتاب ٤ ، فصل ٦ - انظر ما تقدم ص ١٥) ان الربان الذي أخذه البرتغاليون من ملندي مسلم من جوزرات ، اسمه معلم (كذا) كانا . وقد وردت الصيغة الخاطئة الى ملندي في المخطوطات ١٦٤٤ - ١٦٥٠ ، و الى بلندي في المخطوطة ٥٩٢٧ ، و « الى ملندي » عند لوبيس ، عوضا عن الصيغة الصحيحة « الملندي » التي لم يتميزها دي ساسي : فالملندي صورة عربية منقولة عن لفظ الميرتي البرتغالي « اميرال » . ويعثر على هذه الكلمة في مقدمة ابن خلدون التاريخية (مجلد ٢ ، ص ٣٢ من النص ، ومجلد ٢ ، ص ٣٧ من الترجمة) : « قيادة الاساطيل ، وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وافريقية ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ، ويسمى صاحبها في عرفهم البلمند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة ، فانه اسمها في اصطلاح لغتهم » .

ويضيف دي سلين في الحاشية ان الكلمة الملندي هي اللفظ الاسباني الميرتي ذاته . هذه الرتبة العربية وارادة ايضا في حوليات كلوة ، كلقب لفاسكو داغاما وبعض من خلفه ، بالصيغة الخاطئة الميرتي عوضا عن الميرتي (انظر ارثود سترونغ ، تاريخ كلوة ، في المجلة الاسيوية الملكية ، ١٨٩٥ ص ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ وما يليها) . بالفعل يقول بدرو تكسيرا الذي استشهد به دي سلين في تاويل الملندي : « اذا اراد أحد المحققين ، الموجودين في هرموز أن يستفهم عن أعمال الفونسو البوكيركي وحركاته (التي لا تنسى أبدا) فليسال المسلمين عنها ، ويفهمهم انه يقصد الملندي ، لأنهم لا يعرفون له اسما آخر . وهم يستعملون هذا الاسم عندما يتحدثون عن أعماله (رحلات بدرو تكسيرا وملوك هرموز) ، طبعة و . سنكلير و . فرسوسن ، جمعية هكليوت ، لندن ، ١٩٠٢ ، ص ١٩٢) . ويضيف تكسيرا أن هذا الاسم اربكه ودحا من الزمن . لكن بدا له ان الملندي نسبة الى ملندي (التي تسمى ملند) ، وهي المدينة البحرية في افريقية الشرقية ، التي مر بها البوكيركي قبل أن يتوجه الى هرموز . ويبين هذا التاويل الخاطئ أن الصورة المفلوطة في

النصوص العربية تكرر تشكيلاً لفظياً خاطئاً في اللغة العامية : أي ملندي عوضاً عن ملندي . وينقل لوبيس مقطعا (مختارات ، ص ٦٠ وما يليها) عن اليمن ، ثلاثة أعوام في جزيرة العرب « ل رينز منزوني (رومة ، ١٨٨٤ ، ص ١٧٠) جاء فيه يسمى المؤرخون العرب فاسكو داغاما « علي من الهند . ويلاحظ المستشرق البرتغالي الكبير أن لا علم له بشيء من ذلك . وتعود هذه التسمية إما إلى تلاعب باللفاظ أو إلى تفسير صادر عن فهم خاطئ من قبل منزوني .

٢١ - الأصل : وتوعلوا . لوبيس : وتوغلوا .

٢٢ - أي ملندي ، التي استقل منها أحمد بن ماجد سفينة القيادة البرتغالية .

٢٣ - جاء في جميع النسخ ما عدا ٥٩٢٧ ، كوة كوتا ، وكوتا زائدة يجب حذفها حسب المعنى وتتممة الجملة . لوبيس : كوة فقط .

٢٤ - انظر الحاشية التالية :

٢٥ - تتوقع كوة ، من اللغة السنسكريتية ، ومعناها حصن أو قلعة .

٢٦ - لوبيس : وتقوا هنالك .

٢٧ - يقول لوبيس (مختارات ، ص ٦١ وما يليها) : استولى الفونسو دي البوكيركي عام ١٥٠٧ على هرموز ، وكان ملكها سيف الدين . إلا أن الاستيلاء على هرموز سبق احتلال كوة ، ولم يله ، مثلما جاء في النص . انظر باروس ، دا آسيا ، العقد ٢ ، الكتاب ٢ ، الفصل ٣ ، ٤ ، ٥ وتعليمات الفونسو دي البوكيركي الكبير ، مجلد ١ ، فصل ٢٧ - ٢٨ ، وكستنهيدا تاريخ وصف الهند وفتح البرتغاليين لها ، الكتاب ٢ ، الفصل ٥٧ - ٦٣ ، وكوريا ، أرض الهند ، مجلد ١ ، ص ٨١٤ - ٨٨٤ .

٢٨ - الأصل : البرتقان .

٢٩ - لوبيس : فصاروا يقطعون .

٣٠ - لوبيس ، زيد : بن أحمد شاه .

٣١ - لوبيس : يومئذ .

٣٢ - نرجح صحة هذا التفسير ولا سيما أن الأساطيل البرتغالية حصلت في القرن السادس عشر بتواتر وسهولة على معاملة مسلمين . ويقول جان دي كاسترو مثلا بصراحة إنه كان لديه معاملة مسلمون على مراكبه عندما زار بحر القلزم (انظر :

son Roteiro em que se conta a viagem que fizeram os Portuguezes no anno de 1511, partindo da nobre cidade de Goa atée Soez. que he no fim, e stremidade do mar Roxo

طبعة أنطونيو نونس دي كرفلهو ، باريس ١٨٣٣ قطع ثمن ، ص ١٢ ، ١٥٢ ، ١٥٦) . والموضوع يتعلق هنا بالملاحه في بحر شبه مقدس يقضي إلى بنادر الأماكن المقدسة المسلمة في مكة والمدينة . من جهة ثانية ، كان البرتغاليون يقومون بحملة عنيفة ضد السفن المسلمة ، ولم تمنع هذه السياسة تعاون المعاملة المسلمين مع البرتغاليين ، كما يتضح من مثال جان دي كاسترو وكثيرين سواء أيضاً : « ... وعليه ، بعد أن أقمنا هنالك حتى السادس والعشرين من الشهر ذاته (تموز عام ١٥٠٢) ، استأنفنا تتويهننا ، ومعنا ليقودنا إلى كلوة ، معلم مسلم ، اتفقنا معه على أن نؤدي له أجراً يعادل عشرة دوكات . وجرى بنا في الليل في الباحة ، وفي النهار برؤية البر والاتجاه عكس الاتجاه (= الشمال) » . (ملاحه فاسكو داغاما ، طبعة ش . شيفر ، باريس ، ١٨٩٨ ، قطع ثمن ، ص ٩٢) .

٣٣ - انظر الحاشية ٣ .

٣٤ - طبعة أكاديمية العلوم في لشبونة ، مجلد ١ ، ١٨٥٨ ، فصل ١٥ ، ص ٦٤ . لا يعرف أحد بدقة متى أنجز تحرير كتاب أرض الهند ، لكن كان لا يزال يعمل فيه عام ١٥٦١ (انظر مجلد ١ ، ص ٢٦٥) ،

استناداً إلى خبر يعطيه المؤلف نفسه . ويتناقض خبر كوريبا مع النصوص الأخرى التي يمكن الوثوق بها .

٣٥ - المرجع ذاته ، ص ٦٨ .

٣٦ - ظنوها الهة هندية .

٣٧ - في العقد ٣ ، الكتاب ٧ ، الفصل ٧ ، ص ٣٠٦ . يتحدث باروس عن خرائط المسلمين للملاحة . اذن كانت واسعة الانتشار .

٣٨ - هذا هو الاسقاط المسمى مسطح مربع (انثيوم ، الخرائط الجغرافية وخاصة الخرائط البحرية في العصور القديمة وفي القرون الوسطى ، في مجلة الجغرافيا التاريخية والوصفية ، ١٩١٢ ، ص ٣٨٣ وحاشية ٥) اعتمد رينو على هذا المقطع من باروس في جغرافية أبي الفداء ، مجلد ١ ، مدخل عام الى جغرافية الشرقيين ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

٣٩ - ترجم رينو خطأ ، وقال : آلات شبه شكلها مثلثي احيانا و احيانا مربع « . اما في النص : فجاء : آلات شبه شكلها ومثلثي ، ثم ارباع .

٤٠ - تم الحديث بين فاسكو داغاما والمعلم كانا بواسطة مترجم المركب حتماً ، اذ ان كل قائد اسطول يصحب معه شخصاً برتغالياً يعرف اللغة العربية لكن في العربية النجم ، حرفياً « النجمة » تعني خاصة الثريا (ستة كواكب من الحمل) التي تعتبر الكوكب الأمثل (انظر محمد المقرئ . منازل القمر عند العرب ، المتن والترجمة لـ أ. دي س . موتيلينسكي ، الجزائر ، ١٨٩٩ ، قطع ثمن ، ص ١١ و ٨٦) . لكن ما دامت الارشادات الملاحية لابن ماجد وسليمان المهري لم تورد أي تحديد لدرجة العرض بالثريا ، افترض ان النجم في النص البرتغالي المهري لم تورد أي تحديد لدرجة العرض بالثريا ، افترض ان النجم في النص البرتغالي يدل بالاحرى على الجاه او النجم القطبي . بالفعل تحدد درجات عرض كثيرة جداً في نصف الكرة الشمالي بارتفاعات الجاه في هذه النصوص العربية .

٤١ - انظر ما تقدم ، ص ١٥ ، ١٨ وما يليها .

٤٢ - مع الاسف لم يصلنا هذا الكتاب الهام الذي يحيل اليه دي باروس كثيراً انظر مذكرتي : ملقة ، مالايو ومالابور ، في المجلة الاسيوية ، ايار - حزيران ١٩١٨ ، ص ٤٣١ الحاشية .

٤٣ - انظر جال ، الاصطلاحات البحرية الملاحية ، اللفظ اربالست وما تقدم ص ٢٠ .

٤٤ - عقد ١ ، كتاب ١ ، فصل ٦ ، ص ٣١٩ - ٣٢١ .

٤٥ - انظر مذكرتي عن المغاربة في كاليكوت وملقة في القرن الخامس عشر ، في متوعات رينه باسيه ، مجلد ١ ، باريس ١٩٢٢ ، ص ٢٠٢ وما يليها .

٤٦ - انظر الحاشية ١ .

٤٧ - انظر الحاشية ٤ .

٤٨ - انظر : Museum, maanblad voor philologie en geschiedenis

السنة ٣٢ ، ١٩١٥ ، لايدن ، ص ١٨ ، تقرير عن المجلد الاول من هذه المطبوعة لـ ف . س . فان روتنكل .

٤٩ - انظر كتاب دوارته بريوسا ، طبعة وترجمة ع . لونفورت ديمس ، جمعية هكليوت ، ١٩٢١ ، المجلد الثاني ص ٦١ ، حاشية ٢ مع تصحيحات م . ق . س . فان روتنكل المشار اليها في الحاشية السابقة .

٥٠ - المرجع ذاته ، ص ٦٢ .

٥١ - بقي تباين آخر . يقول كستنهيديا ان ابن ماجد « ربان حوزراتي » . ويرى باروس وغويس انه « مسلم من حوزرات » . وعلى النقيض ، نعرف منه ان المعلم الشهير عربي مولود في جلفار . فخطا المؤرخين البرتغاليين او بالاحرى غلط مصادرهم واضح . لكن لا يسعني ان اعلله .